دور اليمن في العهد الإسلامي الأول

تأليف

د. عبد الوهاب العقاب

دور اليمن في العهد الإسلامي الأول

تأليف: د. عبد الوهاب العقاب

الطبعة الأولى: ٢٠٠٩.

عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة.

جميع العمليات الفنية والطباعية تمت في:

دار ومؤسسة رسلان للطباعة والنشر والتوزيع

يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار ومؤسسة رسلان

للطباعة والنشر والتوزيع

سوريا ـ دمشق ـ جرمانا

هاتف: ٥٦٢٧٠٦٠ ١١ ٠٠٩٦٣

فاكس: ٥٦٣٢٨٦٠ ١١ ٠٠٩٦٣

ص. ب: ٢٥٩ جرمانا

المقدمــة

كانت اليمن قبل الإسلام تمتلك مقومات حضارية، كما كان لها عادات وتقاليد وأديان متعددة.. ورزحت اليمن قبل الإسلام تحت نير الاستعمار الفارسي. حتى جاء الإسلام وحررها.. و انضمت اليمن إلى قائمة الأقاليم العربية الأخرى للدولة الإسلامية الجديدة التي ظهرت في مدينة يثرب (المدينة المنورة).

وانساح اليمانيون نحو المدينة مجندين أنفسهم في العمل الجهادي الجديد. وكان لتلك النفرة الجهادية لليمانيين دور كبير في الإسهام الفاعل في الفتوحات الإسلامية. مما أدى إلى نزوح الكثير من الأسر والقبائل إلى مناطق تم إعدادها في العراق والشام ومصر والمغرب العربي، ومناطق أخرى استوطنتها القبائل اليمانية.

ونشأت مدن في العراق والشام ومصر وكان معظم سكانها من اليمانيين. وكان منهم القادة العسكريون، والولاة، والقضاة، والمستشارون السياسيون، لأولي الأمر.. وحاول الباحث في بحثه هذا توضيح الدور الذي لعبته القبائل اليمانية في تشكيل الدولة الإسلامية من خلال الفصول التالية :-

الفصل الأول : عالج الإطار السياسي والاجتماعي ما قبل الإسلام، حاول الباحث توضيح المفهوم القبلي عن اليمن والعلاقات الاقتصادية والسياسية التي تحكمت بمجريات الحياة القبلية في ذلك الحين. وعالج الفصل الثاني : موضوع الدعوة الإسلامية وحركة الردة في اليمن، من خلال منظور معاصر ورؤية جديدة توضح دور اليمنيين في التغلب على

التشـكيك المنبعـث مـن قبـل بعـض زعمـاء القبائـل والـذين ارتكسـوا ، ونكصـوا ، وعـادوا إلى أوكـارهم منكسـرين. أمـا الفصـل الثالـث: فقـد عالج دور اليمانيين في مشاركتهم الجهادية في الفتوحات الإسلامية..كما عـالج الفصـل الرابـع : الموقـف السياسـي والعصـبوي للقبائـل اليمانيـة مـن الخلاف السياسي الحاد بين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ومعاوية بن أبـي سـفيان (مؤسـس الدولـة الأمويـة). وتنـاول الفصـل الخـامس: نتـائج الصراع السياسي والعسكري بين علي ومعاوية ، ودور اليمانيين في مسألة الخلاف ونتائجه. وعالج الفصل السـادس، المفهوم الفلسفي لسياسة دولة معاوية، وانعكاس أثرها على الأوضاع السياسية التابعة لدولة بني أمية.

دكتور/ عبد الوهاب العقاب

الفصل الأول

الحياة السياسية والاجتماعية في اليمن قبل الإسلام

الفصل الأول

الحياة السياسية والاجتماعية في اليمن قبل الإسلام

مع حلول القرن السادس الميلادي انهارت السلطة المركزية في اليمن، نتيجة تردي أنظمة الري، وبالتالي انتشرت ظاهرة البداوة بشكل كبير. بمعنى أن المجتمع اليمني كونه مجتمعاً زراعياً، أصبحت الزراعة موسمية، وبدأ القوم يترَّحلون من مكان إلى آخر.

فقد كان لندرة الماء والكلأ في المناطق التي ألف القوم الحياة فيها أثر في جعل العيش صعباً، وأصبح المتوطن في البادية معرضاً للموت بسبب ندرة الموارد الطبيعية التي لا يمكن أن تقوم بإشباعه على مدار السنة، لذلك كان عليه اللجوء إلى الترحال المستمر أو الموسمي. وولد شح الطبيعة لمقوماتها تنافساً قبلياً على الموارد الطبيعية المحدودة [1].

والقبيلة ليست معزولة عن المجتمع لأنها بحاجة إلى تبادل منتجاتها مع القبائل المجاورة لها، ولذلك توجهت القبائل اليمنية إلى مد جسورها مع العالم الخارجي من خلال العمل التجاري. وأدى ذلك بحكم الترحال التجاري إلى تراكم مادي ومعرفي.

---

(١) الفضل شلق : القبيلة والدولة أو ا تمع (مجلة الاجتهاد – العدد ١٧ – السنة الرابعة – خريف عام ١٩٩٢/ ١٤١٣هـ دار الاجتهاد، بيروت – ص١٠ .

ودعت الضرورة الاقتصادية إلى تعاون أبناء القبيلة من أجل الإنتاج، ودرء خطر داهم يهدد الاستقرار.. ولذلك تعرف القبيلة بأنها مجموعة من العلاقات الاجتماعية [1].

واليمن لا تختلف عن مثيلاتها كثيراً في شبه الجزيرة العربية.. والقبيلة في الأصل هي صاحبة النفوذ والقوة، وعلى الأرض اليمنية برزت سبع قبائل كبيرة وهي: "حمير، همدان، مذحج، خولان، حضرموت، كندة، مهرة".. إضافة إلى قبائل بلاد السراة العديدة، وقبائل إقليم تهامة.. وتنقسم كل قبلية إلى بطون وعشائر، وأصبح لكل قبيلة موقع مكاني محدد، فالقبائل التي تقع بين الطائف ونجران تسمى قبائل بلاد السراة، وكل قبيلة تمثل كياناً له قيادته القبلية وعلاقاته الخاصة بالكيانات القبلية المجاورة سلماً وحرباً [2].

في بلاد نجران خليط من القبائل من مذحج، وهمدان، أما وادي نجران فيضم قبيلة بني الحارث بن كعب من مذحج.. أما قبيلة خولان وهي بطن من كهلان مدينتهم صعدة، وتمتد شمالاً حتى وادي نجران وتمتد جنوباً حتى تلتقي ببلاد همدان، وسهلها غرباً يدخل ضمن تهامة، ومن ناحية الشرق فتلاصق بلاد مذحج (سرو مذحج).

---

(١) يرى مضاوي الرشيد (Politics In An Arabian oasis) بأن القبيلة (تجمع كبير من الناس الذين يدعون نسبا مشتركا، مما يمنحها تماسكاً هشاً، فعلاً : الفضل شلق : المرجع السابق، ص١٧ .

(٢) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب، ص٣٨٧ : نقلا عن : د / عبد الرحمن الشـجاع. تـاريخ اليمن في الإسلام، حتى اية القرن الرابع الهجري، ص٣٠.

ولقبيلة (خولان) فرعان : الأول (خولان قضاعة)، ويسكنون المناطق الشمالية والفرع الثاني (خولان بني عمر)، ويسكنون شرقي صنعاء ... وتلتقي همدان بخولان من ناحية الشمال، أما بلاد همدان فتقع شمال صنعاء، وتلتقي ببلاد خولان من ناحية الشمال، ومن الجنوب تقع مدينة صنعاء، ومن الشرق تلتقي ببلاد خولان العالية والجوف وسرو مذحج، ومن الغرب تهامة.

وتنقسم قبيلة همدان إلى فرعين كبيرين وهما (حاشد) في الشرق، وبكيل في الغرب أما قبيلة (حمير) فتسكن سرو مذحج الواقع بين تهامة غرباً وسرو مذحج شرقاً، وتتلاحم مع حضرموت في الجنوب الشرقي، ومن الشمال تلتقي بهمدان وخولان العالية والأبناء في صنعاء، ومن الجنوب عدن (منطقة الأبناء) والبحر العربي.. وتتفرع قبيلة حمير إلى فروع عدة، وكل زعيم فرع يطلق عليه (ملك) ولذا تعددت الألقاب الملكية فيهم بينما الواحد منهم لا يتعدى سلطانه على أحد الوديان..

وتأتي قبيلة (مذحج) ويسكنون في سرو مذحج، والذي يقع في شرق اليمن الممتد من تثليث شمالاً ويمر شرق نجران وخولان وهمدان، وسرو حمير، ويتداخل مع أطراف حضرموت حتى يستقر جنوباً في دثينة الواقعة بين الجند حاضرة سرو حمير وعدن ميناء الإدارة الفارسية. وأهم القبائل المذحجية التي بقيت في سرو مذحج هي (مراد، عنس، زبيد، مسلية و(أود) و (الرهاء).

وتأتي قبائل تهامة التي تقع في إقليم تهامة الذي يحده تهامة الحجاز شمالاً حتى عدن جنوباً ويصل طوله إلى ٩١٥كم، ويحده من الشرق نجد

اليمن الذي تقطنه قبائل الأزد وخولان وهمدان وحمير ومن الغرب يحده البحر الأحمر [١].

أما إقليم حضرموت، فكان امتداده من عمان والبحر العربي شرقاً إلى عدن،وسرو مذحج، وسروحمير غرباً ، ومن البحر العربي جنوباً إلى الربع الخالي شمالاً ، وينقسم إلى ثلاثة أقسام :

- قسم تنزل فيه قبيلة المهرة وهو الساحل الجنوبي الشرقي المحاذي لعمان والشحر.. وقسم يخص قبيلة حضرموت وهو وادي حضرموت.. وعاصمتهم شبام حضرموت. وتلتقي بلادهم مع حمير، ، ومذحج من ناحية غرب إقليم حضرموت.. وتسكن قبيلة كندة في أعلى إقليم حضرموت وتتمركز في وادي دوعن، ووادي عين، وفيها حصن النجد ومدينة تريم. وتنقسم قبيلة كندة عشائرياً إلى قسمين هما : بني الأشرس وبني معاوية[٢].

لقد كان اليمنيون متميزين عن جيرانهم في طرق استخدام المياه في الزراعة فأقاموا السدود لذلك، وأهم هذه السدود (سد مأرب).. وأدى الازدهار الزراعي في اليمن إلى الاستقرار المكاني فتميزت معالم حدود كل قبيلة، وترتب على ذلك تعاضد قبلي، من ثم نشط اليمنيون في الحركة التجارية مع مصر، وبلاد الشام والعراق فتدفقت الثروة على اليمن.. وكون التجار منهم اسطولاً تجاريا تشحن سفنه بالبخور لإمداد معابد بلاد الشرق. كما كان لدولة سبأ قوافل تجارية تجوب الصحراء

---

(١) د. عبد الرحمن الشجاع : المرجع السابق ص ٣٤ .

(٢) نفس المرجع : ص٣٧.

وتخترقها إلى الشام وفلسطين،[1] لنقل السلع التجارية اليمنية وتستورد منها السلع التي تتطلبها بلادها.

وتوقفت هذه الحركة الاقتصادية بسبب تصدع سد مأرب.. وبانيهار السد، فاضت المياه على ما حوله من قرى ومزارع فأتلفتها، وتدهورت الزراعة مما اضطر المستفيدين منها إلى الهجرة خارج البلاد.

وكانت دولة سبأ مركزاً وسطاً بين دول الحضارات القديمة في الهند وفي مصر وفي وادي دجلة والفرات وفي الشام.. وفي بلاد اليونان والرومان. وبحكم موقعها الجغرافي فقد كانت تشرف على طرق التجارة العالمية سواء منها الطرق البحرية عبر البحر الأحمر والخليج الفارسي والمحيط الهندي أو طرق القوافل الممتدة عبر الصحارى العربية "وكانت سبأ تنتج البخور الذي كان من أهم السلع العالمية، في إحياء الطقوس الدينية القديمة [2] ".

وعلى مدى الألف الأول قبل الميلاد أخذ نفوذ اليهود (التجاري) في الازدياد.. وهيأ الرومان لليهود فرصة الانفراد بالسيطرة على تجارة البحر الأبيض المتوسط حين تمكنوا من القضاء على الفينقيين والبطالمة، وقد حاولوا – عبثاً – القضاء على السبئيين بغزوهم عام ٢٤ ق.م [3].

---

(١) د / عصام الدين عبد الرؤوف الفقي : اليمن في ظل الإسلام القاهرة، دار الفكر العـربي ط١، ١٩٨٢،ص٩.

(٢) د.حسن الباشا. المشكلة اليهودية من عهد سبأ إلى صدر الإسلام (ا لة العدد التاسع) سـبتمبر ١٩٥٧م ص ٨٨.

(٣) نفس المرجع ص ٨٨.

وقد أثار الرومان استفحال نفوذ اليهود ـ فأعدوا عدتهم نحو التخلص منهم.. ومع مطلع القرن الأول الميلادي استطاع الرومان القضاء على مراكز اليهود التجارية. وفي عام ٧٠م استطاعت القوات الرومانية القضاء على دولة اليهود في فلسطين وأزالوا معابدهم في القدس وفرضوا عليهم الجلاء عن الأرض. وتفرقوا في مناطق الجوار ومنها الجزيرة العربية وجنوبها وحاولوا أن يؤسسوا دولاً على حساب غيرهم من الشعوب. ومن هذه المحاولات عملوا على تأسيس دولة لهم في بلاد اليمن. ولم يقاوم العرب استيطان اليهود في بلادهم.بل على العكس من ذلك رحبوا بهم. وأشركوهم في تجاراتهم.. وأخذ اليهود يعملون على توطيد نفوذهم والسيطرة على الطرق البرية، فكانت لهم السيادة في يثرب وغيرها من المناطق الأخرى، كما أصبحت لهم جاليات في مكة ونجران وفي اليمن[١].

وكونت قبائل حمير دولة على أنقاض دولة سبأ، وكانت موضع تنافس بين دولة الفرس " الساسانيين " ودولة الروم " البيزنطيين " واستخدمت دولة الروم سلاح العقيدة الدينية المسيحية في فرض نفوذها وتوسعها، ونجحت في نشر الديانة المسيحية في الحبشة وفي بلاد اليمن، وأصبح لها في منطقة نجران تنظيم عقائدي صارم وضم جماعة غير يمنيين وكان الغرض من نشر المسيحية من أجل أن يكون لبلاد الروم نفوذ سياسي واقتصادي فيها. وأوجد لهم مناخ تجاري تسير قوافله بين الخليج العربي والبحر الأحمر مارة ببلاد اليمن. الأمر الذي حمل التجار العرب للتصدي لقوافل الروم التجارية [٢].

---

(١) نفس المرجع ص ٨٩.

(٢) نقلا عن د عصام الفقي Hitti : History of the Arobs p. 61- .

ونتيجة التنافس التجاري عمل اليهود على نشر ديانتهم ونجحوا في تهويد زعماء حمير وملوكهم وانتشرت اليهودية بين قبائل حمير وغيرها من القبائل.. وعرف عنهم التعصب لعقيدتهم الجديدة. ولما زاد نفوذهم في اليمن أظهروا رغبتهم في الانتقام من المسيحيين الروم العابرين بتجارتهم الهندية في طريقهم إلى الحبشة ومصر.. وكان الفرس يقومون بتعضيد اليهود في موقفهم العدائي من المسيحيين اليمنيين وأشياعهم من البيزنطيين الذين استوطنوا الإقليم الجنوبي على جانبي البحر الأحمر مما يشكل خطراً على فارس من ناحية الجنوب، وكان المسيحيون اليمنيون يعتمدون على مساعدة الروم لهم ضد أعدائهم اليهود [١].

وتشير بعض الدراسات[٢] إلى أنه مع بداية القرن الرابع الميلادي ظهرت عوامل جديدة دفعت اليهود إلى تغيير موقفهم من الجالية المسيحية في اليمن، بسبب رعاية إمبراطور بيزنطة للديانة المسيحية.

واشتد الصراع بين المسيحية واليهودية في اليمن.. وفي عهد ملك حمير (ديمانوس) تعرضت القوافل التجارية المسيحية البيزنطية الذين كانوا يمرون بطريقهم من اليمن إلى الحبشة والعكس إلى المنع من السير والمصادرة لبضاعاتهم.. فتحالف الروم (البيزنطيون) والأحباش، على الخلاص من الملك الحميري، وأمروا بدلاً منه أميراً مسيحياً.. ولما توفي أقام اليهود (ذونواس الحميري) ملكاً على اليمن.. وقد اشتد ذو نواس الحميري على المسيحيين واضطهدهم، وذهب إلى نجران ودخلها عنوة وسام أهلها

---

(١) نقلا عن د / عصام الفقي 62 .\> IBID. P–.

(٢) د / حسن الباشا : المرجع السابق،ص٨٩ والملاحظ أن قسطنطين الأول عام ٣٠٦-٣٣٧هـ وكذلك ثيودسيس (سنة ٣٧٩-٣٩٥هـ) جعل الديانة المسيحية الدين الرسمي للدولة.

سوء العذاب، وألحق بهم الأذى، لرفضهم القبول بالديانة اليهودية، وحفر لهم أخدوداً، وأشعل فيه النيران وأحرق عدة آلاف من أبناء نجران [1] وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله تعالى (قتل أصحاب الأخدود، النار ذات الوقود، إذ هم عليها قعود، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود، وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد)[2] . ولما علم إمبراطور روما، ما حل بنصارى نجران، بعث إلى نجاشي الحبشة ، يحرضه على غزو بلاد اليمن، وإنقاذ المسيحيين المضطهدين فيها، والتخلص من ذي نواس الحميري، وحماية المسيحية في بلاد اليمن.

وقام نجاشي الحبشة بغزو اليمن في عام ٥٢٣م، للدفاع عن النصارى والقضاء على الملك اليهودي المغتصب، وهزم (ذو نواس) وتم القضاء على دولته اليهودية في مهدها (وكانت محاولات ذو نواس، الإجرامية قد باءت بالفشل إلا أنها أدت إلى القضاء على استقلال (دولة حمير) و إلى انهيار الحضارة اليمنية وإلى خمود النهضة العربية التي كانت منبعثة من هذا الجزء من بلاد العرب) [3]. واستطاع القائد العسكري الحبشي إرياط من الوصول إلى عاصمة الدولة الحميرية (ظفار) وقبض على زمام الأمور في اليمن. وتولى إرياط الحكم كوال للحبشة وبذلك خضعت اليمن للحكم

---

(١) Philiby : the Bockgriund of Islam. p. 119- نقلاً عن : دكتور/ عصـام الفقي، مرجع سابق ص١١.

(٢) سورة البروج أية ٤-٨ والمعلوم أن "ذي نواس " أو يوسف استطاع أن يغتصب العرش في عام ٥٢٣ م وشرع في تضييق الخناق على المسيحية، التي أخذت في الانتشار على حسـاب اليهوديـة والوثنية وتحالف مع الفرس في الخلاص من المسيحية، (حسن الباشا : مرجع سابق ص٩٠).

(٣) د / حسن باشا : المرجع السابق ص٩١.

الحبشي. وكان تعداد جيش الحبشة (٧٠,٠٠٠مقاتل) حسب رواية مؤرخي العرب [١] ونجح إبرهه في عملية انقلاب أطاح بالحاكم الحبشي (أرياط) في عام ٥٢٥م واستطاع أبرهة الحبشي أن يحكم بيد من حديد، ومن أهم أعماله إصلاحه لسد مأرب، وبناؤه كنيسة عظيمة في صنعاء وسميت (القليس) وبالغ في زخرفتها ووضع فيها التماثيل وأراد أن يجعل منها مزاراً ليحج إليها العرب بدلاً عن الكعبة، وبالتالي تصبح صنعاء سوقا تجارية ويساعد ذلك على نشر المسيحية بين القبائل العربية كلها.

لكن العرب استاؤوا من مشروع أبرهه، في كنيسته، فعملوا على تدنيسها بالقاذورات..فاتخذ من ذلك ذريعة لغزو مكة وتدمير الكعبة. إلا أن حملته المشهورة في عام ٥٤٠م فشلت لأن رب الكعبة حماها من عنده فأنزل اللّه على جيش أبرهة حجارة من سجيل، كما تنص الآية الكريمة في سورة الفيل (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل.. الخ)[٢] ويرى الذين يميلون إلى تضييق نطاق الخوارق والغيبيات، وإلى رؤية السنن الكونية المألوفة تعمل عملها، أن تفسير الحادث بوقوع وباء الجدري والحصبة أقرب وأولى , وأن الطير قد تكون هي الذباب والبعوض التي تحمل الميكروبات فالطير هو كل ما يطير) [٣] .

---

(١) د / أحمد فخري : اليمن ماضيها وحاضرها، صنعاء المكتبة اليمنية للنشر والتوزيع ط٢ ١٩٨٨م ص١٧.

(٢) سورة الفيل : أية ١-5 (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ألم يجعل كيدهم في تضليل وأرسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول) .

(٣) سيد قطب : في ظلال القرآن، بيروت و دار إحياء التراث العربي ط٧ ١٩٧١ ج٣ ص٦٦٧ .

وجاء في تفسير السورة في جزء عم، للشيخ محمد عبده (وفي اليوم الثاني فشا في جند الجيش داء الجدري والحصبة.. قال عكرمة : هو أول جدري ظهر ببلاد العرب. وقال يعقوب فيما حدث إن أول ما رؤيت الحصبة والجدري في بلاد العرب ذلك العام. وقد فعل الوباء بأجسامهم ما يندر وقوع مثله. كان لحمهم يتناثر ويتساقط فذعر الجيش وصاحبه وولوا هاربين، وأصيب الجيش) (١) .

وعاد أبرهة إلى اليمن يجر أذيال الهزيمة والخيبة، وتوفي بعد وصوله إثر إصابته بمرض خطير.. وفي عام ٥٤٤م انتهى حكم أبرهة وخلفة ابنه يكسوم الذي حكم مدة ١٩ عاماً، ثم خلفه أخوه مسروق وحكم ١٢ عاماً وفي عهده ظهرت معارضة يمنية تجاه الأحباش مستعينين بالقوى الوثنية واليهودية من القبائل اليمنية، وتطلعت هذه الجبهة إلى الدعم الفارسي لتحريرهم من الأحباش.

ومن الأسباب التي عجلت الثورة ضد المستعمر الحبشي، هو أن الأمير مسروق بن إبرهة كان عهده مليئاً بالفوضى ، وضج أهل اليمن مما لحق بهم من اعتداءات على أعراضهم وأموالهم.. وعجزت الثورات المتعددة من طرد الأحباش، وليس أمامهم من سبيل سوى اللجوء إلى فارس. وكما هو معلوم أن الحركات الثورية ضد الأحباش لم تكن شعبية بمعنى أنها (لم تكن ثورة عارمة مادتها كل الجماهير والسادات بل كانت ثورات سادات)(٢) .

---

(١) نفس المرجع : ص ٦٦٧.

(٢) د/جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ج٣، بيروت دار العلم للملايين، ط١ ١٩٦٩م ص٥٢١.

وكان صاحب الرأي باللجوء إلى فارس، هو سيف بن ذي يزن من أبناء الأذواء، ومن أسرة شهيرة.. وتوجه مع وفد إلى الحيرة، واستقبله ملك الحيرة (النعمان بن المنذر) ثم ذهب به إلى كسرى، وحدثه في شأنه وقومه، فأمده (بثمانمائة محارب، وبـ (وهرز) أمره عليهم وبثماني سفن جعل في كل سفينة مائة رجل وما يصلحهم في البحر، فخرجوا حتى إذا لجّوا في البحر غرقت من السفن سفينتان بما فيهما) [1] وأرست السفن الست الباقية بساحل عدن تحمل عليها ستمائة رجل فيهم القائد العسكري الفارسي (وهرز) وسيف بن ذي يزن، فلما سمع بهم الأمير مسروق بن أبرهة جمع إليه جنده من الحبشة وتوجه إليهم، فلما التقوا رمى (وهرز) مسروق بسهم، أرداه قتيلاً، فانسحب جيش مسروق مذعوراً، ودخل وهرز مدينة صنعاء، وجعل من نفسه ملكا على اليمن، وطرد عنها الأحباش، وكتب بذلك إلى كسرى فأمره كسرى أن يمكن سيف بن ذي يزن من السلطة على اليمن وأرضها، وأن يعود وهرز إلى بلاده، فرجع إليها وفرض على سيف جزية وخراج يؤديه في كل عام [2].

إلا أن ملك اليمن الجديد سيف بن ذي يزن) عمل على إذلال ما تبقى من الأحباش وأباد الكثير منهم، واتخذ منهم خدماً يسعون بين يديه بحرابهم، حتى إذا كان في وسطهم هجموا عليه بالحراب وقتلوه، وتأمر رجل منهم على اليمن وعاث في الأرض فساداً ولما بلغ بذلك كسرى بعث إليهم (وهرز) في أربعة آلاف من الفرس وأمره أن لا يترك باليمن أسود ولا

---

(١) نفس المرجع السابق ص٥٢٣.

(٢) الطبري (١٣٦/٢) دار المعارف، كذلك، ابن خلدون (٦٣/٢) نقلا عن :- د جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، مرجع سابق ص٥٢٣ .

ولد عربية من أسود إلا قتله، صغيراً كان أو كبيراً.. فنفذ وهرز أوامر كسرى فارس، وملكه كسرى على اليمن [1]. وانتهى حكم الأحباش عام ٥٧٥م [2].

(١) نقلا عن د / جوا دعلي ص ٥٢٤ .

(٢) نقلاً عن : د. جواد علي ص٥٢٤ W.Phillips,P.223.

الفصل الثاني

الدعوة الإسلامية وحركة الردة في اليمن

الفصل الثاني

الدعوة الإسلامية وحركة الردة في اليمن

عندما ولدت الدعوة الإسلامية في مكة المكرمة، توجه نبي الدعوة الإسلامية (محمد بن عبدالله بن عبد المطلب بن هاشم) عليه الصلاة والسلام، إلى مدينة يثرب فرارا من قريش الوثنية.. وظل الرسول ثلاث سنوات يدعو إلى الإسلام سراً، حتى أمره الله بأن يدعو إلى الإسلام جهراً (.. فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين إنا كفيناك المستهزئين) [1] (وأنذر عشيرتك الأقربين واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين فإن عصوك فقل إني بريئ مما تعملون)[2] وقد لقي الرسول الكريم في بداية الأمر معارضة كبار رجال قريش له، خوفاً من الدين الجديد ودفاعاً عن معتقداتهم الوثنية، واشتد عدائهم للنبي محمد (ص) حين عاب آلهتهم، وسفه أحلامهم. كون الأوثان في داخل الكعبة وخارجها تشكل مصدراً أساسياً لثرائهم وكسباً لمكانتهم بين العرب.. وطالبت القوى الوثنية القرشية من أبي طالب أن يوقف ابن أخيه محمداً عن دعوته وأن يقنعه بعدم التعرض لأوثانهم[3]، وقال له الرسول صلى الله عليه وسلم (يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه) [4] .

---

(١) سورة الحجر : أية (٩٤) .
(٢) سورة الشعراء :آية (٢١٤- ٢١٦).
(٣) سيرة ابن هشام، ج١ ص٢٦٥ .
(٤) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ج٢ س٥٨.

وتعرض المسلمون لأذى قريش وزاد ذلك من تمسكهم بالدين الجديد، وبوحدانية الله وبرسالة محمد (ص).. ولما اشتد الأذى ضد المسلمين أذن الرسول لهم بالهجرة إلى الحبشة لما كان معروفاً عن إمبراطور الحبشة من عدل وتسامح، فتحالفت قريش على مقاطعة بني هاشم وبني عبد المطلب.. على أن لا يتعاملوا معهم في بيع أو شراء وأن لا يكلموهم ولا يجالسوهم ولا يزوجوهم ولا يتزوجوا منهم، حتى يسلموا إليهم محمداً ليقتلوه.. وكتبوا بذلك صحيفة علقوها في جوف الكعبة، عهداً على أنفسهم[1].

استمرت هذه المعاهدة أكثر من عامين.. عانى المسلمون صنوف العذاب والحرمان.. حتى أشفق عليهم بعض القرشيين، فسعوا إلى رفع الحصار عن المسلمين[2].

بعد حادث المقاطعة فقد الرسول الكريم عمه أبا طالب وزوجه خديجة وكشف رجال قريش المعارضين له ولأتباعه، فلجأ إلى الطائف لنشر دعوته بها بدلا من مكة، لكن أهل الطائف أساءوا إلى الرسول، وأغروا به سفهاءهم، ثم انصرف الرسول عن الطائف، واتجه عائداً إلى مكة [3] ولجأ الرسول إلى أسلوب آخر تمثل بعرض دعوته على القبائل في المواسم، يدعوها إلى الإسلام ويخبرهم بأنه نبي مرسل، ويسألهم أن يصدقوه وكان يقف على منازل القبائل من العرب ويقول (يا بني فلان إني رسول الله إليكم بأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد، وأن تؤمنوا بي

---

(١) نفس المرجع ص٧٨.
(٢) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ج٢، ص٨٢.
(٣) نفس المرجع ص ٨٢.

وتصدقوا بي، وتمنعوني حتى أبين عن الله ما بعثني به) [1] ثم أتى إلى بطن من بني كلب (من القبائل اليمانية) فقال لهم : يا بني عبدالله، ودعاهم إلى الله فلم يستجيبوا ، وواصل دعوته رغم تكذيب القبائل له، فأتى قبائل كندة في منازلها ، وفيها سيد لهم يقال له ميلح، فدعاهم إلى دين الله، فلم يقبلوا دعوته .[2]

ويشير المسعودي [3] إلى أن الرسول الكريم في أحدى مواسم الحج لقي ستة من قبيلة الخزرج، فدعاهم إلى الإسلام وقرأ عليهم شيئاً من القرآن، فلقيت دعوته قبولاً منهم، وعادوا إلى يثرب يتحدثون عن الدين الجديد بين ذويهم وعشائرهم، ولم يبق دار من دور عرب المدينة إلا وفيها ذكر النبي الجديد من قريش.. وفي موسم الحج التالي وفد على مكة اثنا عشر رجلاً من يثرب فقابلهم النبي لعقبة عندا بمنى وبايعوه،ثم عادوا إلى يثرب بصحبة مصعب بن عمير، بتكليف من النبي، ليعلم من أسلم الإسلام، وانتشر الدين الجديد في يثرب كلها.

وفي العام (الثالث عشر من البعثة النبوية) اجتمع الرسول الكريم مع ثلاثة وسبعين رجلاً و امرأتين من الأوس والخزرج الذين أسلموا حديثاً ، وتم هذا الاجتماع ليلاً بالعقبة وفيه بايعوا النبي على أن يحموه بكل إمكانياتهم ودعوه للهجرة إليهم والإقامة معهم وعرفت هذه البيعة ببيعة العقبة الثانية [4] ومهدت هذه البيعة لهجرة النبي إلى يثرب، وصحبه في

---

(١) د / عصام الدين الفقي : اليمن في ظل الإسلام، القاهرة، دار الفكر العـربي ط١، ١٩٨٢م، ص١٩.
(٢) إلطبري : المرجع السابق ص٨٣.
(٣) أبو الحسن علي بن الحسن بن علي المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، طبعةالقاهرة ١٩٦٦مج١ ص٤٩٧.
(٤) الطبري المرجع السابق ص٨٦.

هجرته أبو بكر الصديق، ورحب بالنبي أهل يثرب أجمل ترحيب [1] واستوطن الرسول الكريم يثرب وسماها المدينة، وأصبحت عاصمة الدولة الإسلامية الناشئة الجديدة، وانطلق منها المسلمون بقيادة الرسول الكريم، في صد العدوان ونشر الدعوة الإسلامية، ونظم الرسول الكريم حملاته العسكرية والتي سميت بالغزوات.. ففي العام الثاني للهجرة كانت غزوة بدر، وفي العام الثالث كانت غزوة أحد، وفي العام الخامس للهجرة كانت غزوة الخندق أو الأحزاب وحققت هذه الغزوات انتصارات ناجحة. وفي السنة السادسة للهجرة، توجه الرسول الكريم إلى مكة المكرمة لأداء العمرة.. واعترضت قريش دخول المسلمين مكة في منطقة تسمى الحديبية، على بعد تسعة أميال من مكة،وأجريت مفاوضات بين الرسول الكريم وزعماء قريش وسميت (صلح الحديبية) وبموجب هذا الصلح عاد الرسول وأصحابه إلى المدينة دون تأدية العمرة [2] وأتاح هذا الصلح للرسول الكريم فرصة التفرغ لمواجهة اليهود وتأمين دعوته.

وكانت المشكلة التي جابهت النبي محمداً (ص) في المدينة، هي محاولة التوحيد بين عنصري سكانها من العرب واليهود، وكان اليهود القاطنون في الجزيرة العربية كلها منذ مئات السنين، يعتبرون أنفسهم أجانب غرباء عنها. وهي خاصية عنصرية يهودية في كل العصور، فكل يهود العالم سواء في الغرب أو في الشرق، هم أقرب إلى يهود إسرائيل منه للمواطن التي عاشوا فيها مئات السنين، وجاء رسول الإسلام يحل هذه

(١) سيرة ابن هشام، ج١ مرجع سابق ص٤٨٤.
(٢) المسعودي : مروج الذهب، ج١ مرجع سابق ص٣٩٩ .

المشكلة العنصرية على أساس تاريخي، فالعرب واليهود من أصل واحد، وينتسبون إلى جد واحد هو نبي الله إبراهيم (العرب عن طريق إسماعيل، واليهود عن طريق إسحاق [1] (أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه : ما تعبدون من بعدي ؟ قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون) [2] والذي يميز الإسلام أنه دين وسط يعترف بأنبياء العرب واليهود على السواء (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون) [3].

ولذلك دعا الرسول الكريم اليهود للإسلام، إلا أن اليهود بطبعهم العنصري وخوفهم على أموالهم وسيطرتهم التجارية، أخذوا منذ اللحظة الأولى بالكيد لنبي الإسلام ودعوته. بدءاً بالمغالطات الصريحة في أسئلتهم، ومن نفاق وتجسس، إلى افتراء وبهتان، ومحاولة تفريق بين قبيلتي الأوس والخزرج والإيقاع بين المهاجرين والأنصار [4]. وتآمر اليهود على الرسول الكريم ومحاولة اغتياله، ولكنه كان حذرا من مكرهم ودسائسهم ومؤامراتهم، فاكتفى بإجلاء اليهود الذين ثبتت خيانتهم ونقضهم للعهد، فأجلى يهود بني قينقاع حين تحرشوا به بعد غزوة بدر، ثم أجلى بني النضير حين تآمروا على اغتياله بعد غزوة أحد. لكن اليهود ظلوا يكيدون للإسلام.. وحين تآمر يهود بني قريضة مع التحالف القبلي

---

(١) د / حسن الباشا : المشكلة اليهودية من عهد سبأ إلى صدر الإسلام، مرجع سابق، ص٩٢.
(٢) سورة البقرة – آية (١٣٣) .
(٣) سورة البقرة – آية (١٣٦) .
(٤) د / حسن الباشا. المرجع السابق ص٩٣.

القرشي، وسماهم القرآن بالأحزاب، ضد المسلمين واستعد الرسول للجبهة الخلفية ليهود بني قريضة والجبهة الأمامية لأحزاب قريش، وأعمل المسلمون الحيلة، فأوقعوا بين بني قريضة وبين العرب مستغلين سلاح العنصرية [1] وكان اليهود يكنون العداء للعرب عامة. وبالتالي أسقط المسلمون سلاح الجبهة الخلفية المعادية لهم، وتفرغوا للجبهة الأمامية المحاصرة للمسلمين الذين أضطرهم البرد الشديد والرياح العاصفة إلى فك الحصار و إلى الانسحاب مدحورين[2].

وفي السنة السابعة للهجرة بعث الرسول رسله إلى أمراء اليمن، منهم الحارث بن عبد كلال الحميري وشريح بن عبد كلال، ونعيم بن عبد كلال، ونعمان زعيم قبيلة (ذي يزن) و إلى معافر وهمدان وزرعةُ ذي رعين، يدعوهم وقومهم إلى الإسلام، وتشير بعض الروايات التاريخية، [3] إلى أن الرسول الكريم بعث برسالة إلى باذان الحاكم الفارسى بصنعاء يدعوه إلى الإسلام، كما بعث برسالة إلى الإمبراطور كسرى أنو شروان جاء فيها (.. وإني رسول الله إلى الناس كافة لينذر من كان حياً، أسلم تسلم، فإن أبيت فعليك إثم المجوس) وغضب كسرى استكبارا وأنفة على جرأة النبي العربي، الذي تطاول عليه، ومزق كتاب النبي، وكاد أن يقتل حامل الرسالة.. وعلم النبي الكريم بذلك. وقال مزق الله ملكه.. وتضيف الرواية أن كسرى بعث إلى عاملة في اليمن أن يأتية برأس محمد. فبعث (باذان) رجلين إلى الحجاز ليقتلا محمداً، وأبلغ الرجلان رسالة

---

(١) نفس المرجع ص ٩٣.
(٢) د / حسن الباشا : مرجع سابق ص ٩٣.
(٣) الطبري : تاريخ الأمم والملوك (حوادث سنة ٦هـ) انظر كذلك : ابن االأثير : الكامـل في التاريخ حوادث سنة٦هـ .

كسرى إلى الرسول وأخبراه أن شاهنشاه (كسرى) قد كتب إلى واليه (باذان) يأمره أن يبعث من يأتيه برأسك وقد بعثنا إليك لتنطلق معنا، فإن فعلت، كتب فيك إلى ملك الملوك يشفع فيك، ويكفه عنك وإن أبيت فهو من قد علمت، فهو مهلكك ومهلك قومك ومخرب بلادك.. فطلب الرسول منهما مهلة يوماً وفي هذا اليوم أتاه الخبر من السماء أن الله قد سلط على كسرى ابنه شيرويه فقتله.. وطلب الرسول منهما إبلاغ باذان بذلك.. ووعد الرسول بأنه إذا أسلم باذان سيعطيه ما تحت يده ويملكه على قومه من الأبناء [1].

وما أن عاد الرسولان إلى صنعاء حتى وصل رسول كسرى إلى باذان، يحمل رسالة من الإمبراطور الجديد شيرويه، يقول له فيها : إنه قتل كسرى، ولم يقتله إلا غضباً لفارس، بعد أن قتل أشرافهم وحبسهم في الثغور (فإن وصل كتابه إلى باذان على باذان السمع والطاعة، ولما فرغ باذان من قراءة كتاب كسرى قال (إن محمداً لنبي) فأسلم وأسلم من معه من الفرس، حوالي عام ٦٢٨م [2] .

لقد كان إسلام باذان نتيجة قناعة ذاتية، لما سمعه من القادمين من الحجاز الذين آمنوا بالإسلام ووحدانية الله، وتخلى باذان عن الوثنية شأنه في ذلك شأن الذين تحولوا من الشرك إلى الإسلام. كما لاحظ باذان ضعف سلطة فارس نتيجة الانقلاب داخل القصر الامبراطوري وانتشار

(١) المرجع السابق حوادث سنة ٦هـ.

(٢) محمود كامل المحامي : اليمن شماله وجنوبه، بيروت لبنان، دار بيروت للطابعة والنشر،١٩٦٨م ص١٣٤ .

الإضطرابات، ويشير أحد الباحثين [1] إلى أن ذلك نتيجة ضعف الرابطة بين الحكومة المركزية وواليها على اليمن وأصبح باذان يتصرف بحرية وبدون خوف من حكومته وتسلطها فدخل الإسلام غير مكترث بالعواقب التي قد تنجم عن ذلك بل قبل أن يتخلى عن منصبة كوالٍ على اليمن.

وفي العام الثامن للهجرة زحف الرسول الكريم مع أنصاره المسلمين نحو مكة، وتم فتح مكة، وخضعت قريش تحت ضغط القوة الإسلامية الجديدة، وظن المشركون من قريش بما فيهم بنو أمية ومنهم أبو سفيان وابنه معاوية وآخرون من صناديد قريش أنهم مقتولون وجاءهم الرسول الفاتح وقال لهم : ما تظنون أني فاعل بكم قالوا أخ كريم و أبن أخ كريم.. فقال لهم : اذهبوا فأنتم الطلقاء، فسموا فيما بعد بالطلقاء.. ودخلوا الإسلام جميعاً.

وفي العام التاسع للهجرة تتابعت انتصارات الرسول، وتوافدت القبائل العربية من كل صوب وحدب إلى مكة، وأعلنوا إسلامهم وآشار القرآن الكريم إلى ذلك (إذا جاء نصر اللّٰه والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين اللّٰه أفواجاً فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً) [2] .

وفي نفس العام قدم وفد من اليمن، بزعامة فروة بن مسيك المرادي على الرسول، مفارقا ملوك كندة ومباعداً لهم يوم الرزم بين مراد وهمدان [3] ولما توجه فروة إلى الرسول قال له : يا فروة هل ساءك ما أصاب

---

(١) د : عصام الدين الفقي اليمن في ظل الإسلام مرجع سابق ص٢٦.
(٢) سورة النصر – آية ١-٣.
(٣) سيرة ابن هشام ج٢ ص٥٦٠.

قومك يوم الرزم (١) : فقال يا رسول الله من ذا يصيب قومه مثل ما أصاب قومي ولم يُسئه ذلك ؟ فقال الرسول: أما إن ذلك لم يزد قومك في الإسلام إلا خيراً واستعمله الرسول على مراد وزُبيد حتى توفي (٢) .

وقدم على الرسول أيضاً الحارث بن عبد كلال، والنعمان "قبل ذي رعين " ممثلين لملوك حمير، ومعلنين دخولهم في الإسلام، وكتب لهم الرسول كتاباً أمرهم فيه بأداء الصلاة وطاعة الله ورسوله وإيتاء الزكاة ممن أسلم، والجزية على من بقي على دينه من النصارى واليهود ويعفى منها من أسلم (٣).

كما قدم من اليمن على الرسول وفد الأزد، بزعامة الصرد بن عبد الله، في بضعة عشر رجلاً، ودخلوا في الإسلام وقومهم، وأمره الرسول بأن يجاهد بمن أسلم من أهل بيته المشركين من قبائل اليمن.. فخرج صرد بن عبد الله على رأس جيش في اليمن، ونزل مدينة (جرش)، وانضمت إليهم خثعم، فدخلوا معهم حين سمعوا بسير المسلمين، فشدد عليهم الحصار حتى استسلم أهل (جرش)، ودخلوا في الإسلام، وقدم وفدهم على الرسول معلنين إسلامهم (٤) .

وقدم على النبي أيضاً وفد زُبَيْد معلنين دخولهم في دين الله، بزعامة عمرو بن معد يكرب، كما قدم كذلك وفد آخر بزعامة الجارود بن عمر بن حنش المعلي واعتنق الإسلام هو وأصحابه.. كما وفد على الرسول

---

(١) يوم الرزم حدث قبل الإسلام بين مراد وهمدان أصابت فيها همدان من مراد ما أصابوا حتى هزموهم في يوم الردم فكان الذي قاد همدان إلى مراد هو الأجدع بن مالك .
(٢) يحيى بن الحسين غاية الأماني في أخبار القطر اليماني ص٧٠ كذلك سيرة ابن هشام ج٢ ص٤٨٧.
(٣) ابن مسعد : كتاب الطبقات الكبرى، دار الحرية، القاهرة، جـ ١، ص١١٧، ص١٨٨.
(٤) سيرة ابن هشام : جـ ٢، ص٥٨٢.

صلى الله عليه وسلم وفد خولان ويتكون من عشرة رجال، ودخلوا وقومهم الإسلام.. كذلك وفد الوهاويين ووفد العاقب، والسيد من نجران، ووفد عبس، وأفراد من عشائر صغيرة يعلنون إسلامهم ودخولهم في الدين الجديد.

واهتم الرسول الكريم باليمن، وعهد إلى معاذ بن جبل[١] ، من الأنصار بقضاء اليمن عام ٩هـ وأوصاه بالعمل بكتاب الله وسنة نبيه فإن لم يجد يجتهد ولا يقصر، وأوصاه بدعوة أهل الكتاب في اليمن إلى الإسلام فإن لم يسلموا فعليهم الجزية،و إن أسلموا فعليهم الزكاة تؤخذ من أغنيائهم لترد إلى فقرائهم. وأوصاه بتقوى الله، وأداء الأمانة، وتوقي الخيانة، ومجالسة المساكين والفقراء، ويكون للأرملة كالزوج الصالح، ولليتيم كالأب الرحيم، وأن يعلم الجاهل الخير، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وأن يصبر على البلاء، ولا تأخذه في الله لومة لائم،وأن ييسر ولا يعسر ويبشر ولا ينفر[٢] .

ومما قاله الرسول لمعاذ : "وقد بعثناك إلى قوم رقيقة قلوبهم، فقاتل بمن أطاعك من عصاك. وإذا قدمت عليهم فزين الإسلام بعد لك وحلمك وصفحك وعفوك" [٣].

---

(١) معاذ بن جبل من الخزرج عالم ورع، توفي في الأردن عام ١٨هـ .
(٢) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، حتى عام ٩هـ ،انظر سيرة ابن هشام، ص٥٨٩.
(٣) الخزرجي : العسجد المسبوك، ورقة ٩: نقلاً عن : د/ عصام الدين الفقي : مرجع سابق ٢٩.

وبعث الرسول الكريم إلى اليمن أيضاً (أبا موسى الأشعري) لتوليه بعض ولايات اليمن.. أما معاذ بن جبل فقد كانت مهمته في اليمن والياً على صلاتها وصدقاتها ، بمعنى أن المهمة التي أسندت إليه تتمثل في تعليم الناس شئون دينهم ,وتفقيههم فيه، وجمع الزكاة من أهلها.. وكان قد عهد إلى أبي موسى الأشعري بولاية زبيد ، ورمع، وبلاد الأشاعر.. و عهد إلى باذان بحكم صنعاء، ولما توفي باذان أسند الرسول ولاية اليمن إلى ابنه شهر [1].

وصل معاذ بن جبل إلى مدينة (صعدة) وأمر أهلها ببناء مسجد ثم ودعهم وتوجه نحو صنعاء واجتمع بأعيان صنعاء، وقرأ عليهم خطاب الرسول الكريم، والذي يتضمن دعوة الناس إلى الإسلام، ويحثهم على العمل بما اشتمل عليه هذا الدين الإسلامي من مبادئ وقيم، وتقوى الله والعمل بأركان الإسلام الخمسة، ، وأمر أهل صنعاء ببناء مسجد في حديقة باذان، وهو الجامع الكبير المعروف في صنعاء الآن. ثم توجه معاذ بن جبل إلى الجند ، وأمر أهلها ببناء مساجد في بلادهم.. وقد وصل إلى الجند في أواخر جمادى الأولى، أوائل رجب وبنى مسجداً ، وأقيمت فيه صلاة الجمعة.. وهي أول جمعة أقيمت في اليمن، واجتمع في المسجد أهل الجند والقرى المجاورة لها ، يؤدون أول صلاة للجمعة في تاريخهم خلف أول إمام لهم فرحين مستبشرين بأن أعزهم الله بالإسلام، وحررهم من الوثنية

(١) يحي بن الحسن : غاية الأماني، مرجع سابق ص٧٢.

والشـرك، لـذلك اتخـذ أهـل الـيمن الجمعـة الأولى مـن شـهر رجـب للعبـادة والزيارة والذكرى[1].

وإلى جوار أبي موسى الأشعري، نشط شخص آخر في الدعوة إلى اللّه هـو " الطفيـل بـن عمـر الدوسـي، مـن قبيلـة دوس مـن بـلاد السـراة، وكـان الطفيل سيداً في قومه. وكان قد أسلم ربما في العـام الخـامس أو السـادس للهجرة لأنه عاد إلى مكة في العام السابع للهجرة، ومعه أكثر مـن ثمـانين بيتاً من قبيلـة دوس قـد أسـلموا، ومـنهم أبـو هـريـرة راويـة الإسـلام، وتـبعهم شخص آخر هو " ضماد بن ثعلبة" الأزدي.. وهو من قبيلة الأزد والـتي تقطـن بلاد السـراة، وكـان يعمل بالتطبيب.

كمـا بعـث الرسـول إلى نجـران "خالـد بـن الوليـد " علـى رأس مجموعـة من الدعاة[2] إلى قبيلة بني الحـارث بن كعب بنجران وأمره أن يـدعوهم إلى الإسـلام.. وقدم عليهم خالد بن الوليد يدعوهم إلى الإسـلام فأجابه الـكثير منهم،وأقام خالد فيهم أياماً يعلمهم الإسـلام وكتاب اللّه وسنة نبيه، وعاد خالد ومعه وفدهم وفيهم قيس بن الحصين بن يزيـد بـن قينـان ذي الغصـة، ويزيد بن عبد المدان وغيرهما، فقدموا على الرسول صلى اللّه عليه وسلم

(١) الخزرجي :العسجد المسبوك، ورقة ٩ نقلاً عن : د/ عصام الدين الفقـي : مرجـع سـابق، ص٣٠.

ويضيف عصام الفقي، أن هناك رواية تشير أن جامع صنعاء تم بناؤه في ٦هـ وبناه الصحابي الجليل عمر بن يحنس الأنصاري، وهي رواية ضعيفة غير صحيحة، لأن من الثابت أنه في هذه الفترة تـم بناء مسجدين فقط هما، مسجد قباء ومسجد الرسول، ومن الثابت أيضا أن معاذ بن جبل كلفـه الرسول الكريم في الذهاب إلى اليمن بعد عودته من غزوة تبوك سنة ٩هـ.

(٢) أشار الطبري إلى أن خالداً كان على رأس سرية في أربعمائة رجل، بينما ابن الأثير لم يشر إلى أي رقم من ذلك.

ثم عادوا عنه في بقية شوال أو في ذي الحجة، وأرسل إليهم عمرو بن حزم يعلمهم شرائع الإسلام ويأخذ صدقاتهم وكتب معه كتاباً، وتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمرو بن حزم على نجران[1].

وفي أواخر أيام الرسول بعث إلى اليمن المهاجر ابن أبي أمية إلى صنعاء وزياد بن لبيد إلى حضرموت، وعلي بن أبي طالب إلى نجران[2].

خلاصة القول أن اليمنيين دخلوا الإسلام عن قناعة وكان أهم سبب لذلك أن عملية تحطيم الأصنام في مكة المكرمة على أثر فتحها عام ٨هـ ودخول أهلها الإسلام مما زعزع عقائد الشرك في شبه الجزيرة العربية كلها.. وكذلك خضوع قبيلة قريش للدعوة الإسلامية ساعد على إقبال القبائل العربية للدخول في الإسلام.. كذلك وجد اليمانيون في الإسلام سبباً وحدواً يجمع القبائل كلها داخل إطار ديني موحد يدعو لوحدانية الله والعدل والمساواة بين الناس.. وأصبحت اليمن ولاية إسلامية تتبع الدولة الإسلامية في المدينة المنورة.

وقبل وفاة الرسول الكريم توفي "باذان" الذي كان أميراً على اليمن كلها " وفرق الرسول الكريم أمراءه في اليمن واستعمل عمرو بن حزم على نجران، وخالد بن سعيد بن العاص على ما بين نجران وزبيد، وعامر بن شهر على همدان.. وعلى صنعاء شهر بن باذان، وعلى عك والأشعريين الطاهر بن أبي هالة، وعلى مأرب أبا موسى، وعلى الجند يعلى بن أمية وكان معاذ معلماً يتنقل في عمله في اليمن وحضرموت واستعمل على أعمال حضرموت زياد بن لبيد الأنصاري، وعلى السكاسك والسكون

---

(١) ابن الأثير الكامل في التاريخ ج٢ بيروت دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٨٧م ص١٦٢.

(٢) الطبري : تاريخ الأمم والملوك، حوادث عام ١٠هـ.

عكاشة بن ثور، على بني معاوية بن كندة عبدالله أبو المهاجر، فاشتكى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم يذهب حتى وجهه أبو بكر، فمات رسول الله صلى الله عليه وسلم وهؤلاء عماله على اليمن وحضرموت"[1].

فعندما سمع عبهلة بن كعب بن عوف العنسي[2] (الذي عرف بالأسود العنسي) بأن الرسول الكريم عاد من حجة الوداع مريضاً، فادعى النبوة، واتبعته مذحج، وكانت ردته أول ردة في الإسلام على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وغزا نجران، فأخرج منها عمرو بن حزم وخالد بن سعيد وعاضده "قيس بن عبد يغوث بن مكشوح، حيث وثب على فروة بن سبك. وهو على مراد، فأجلاه واحتل أرضه ومن نجران توجه العنسي نحو صنعاء وخرج إليه شهر بن باذان، وقتل شهر، وفر معاذ بن جبل هارباً حتى لحق بأبي موسى بمأرب وتوجها نحو حضرموت، واستتب للأسود العنسي ملك اليمن [3]، ولحق أمراء اليمن إلى الظاهر بن أبي هالة، بجبال عك، واستولى الأسود العنسي على ما بين مفازة حضرموت إلى الطائف إلى البحرين والأحساء إلى عدن، واستطار أمره كالحريق، واستفحل أمره وزاد، وعين نواباًله في مذحج " عمرو بن معد يكرب الزبيدي وعلى الجند قيس بن عبد يغوث، وأمر الأبناء إلى فيروز وداذويه، وتزوج امرأة شهر بن باذان بعد قتله، وهي ابنة عم فيروز [4] .

---

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، المرجع السابق، ص٢٠١.
(٢) نفس المرجع : ص٢٠١.
(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، مرجع سابق، ص٢٠١.
(٤) نفس المرجع : ص٢٠٢.

وفي عصرنا الراهن طغى على السطح رؤى اجتهادية مختلفة عن ما اتفق عليه المؤرخون في شأن " مسألة الردة " حيث منحوا المرتدين ألقاباً منها [الثورية، والوطنية، والتحررية][1].

لأن المرتدين زعماء حركة مناهضة للنفوذ القرشي، الذي فرض بمجيء الإسلام، وهي سيطرة مضرية على القحطانية.. وأن الإسلام الجديد أبقى الاستعمار الفارسي بتوليه "باذان" الفارسي على اليمن، وأن الانتفاضة التي قام بها عبهلة العنسي، ضد الاستعمار الفارسي، والسيطرة القرشية على حد سواء[2].

هذه الرؤية الضبابية التي ترى بمنظار أسود قائم على عصبية قبلية سطحية، وتوجه سياسي يقوم على تحليلات مجردة منفصلة عن النصوص التاريخية التي وردت في المصادر التاريخية الأساسية، وهذا التوجه يخدم أغراضاً إيديولوجية خارجية، وهناك اتجاه آخر ينفي وجود "ردة" في اليمن لأن أهل اليمن دخلوا الإسلام عن اقتناع، ومن ثم التوقع في حدوث الردة غير وارد في نظر هؤلاء[3].. واستبعد هؤلاء كلمة الردة، واستبدلوا عنها.. الخروج عن طاعة الخليفة أبي بكر في كل ما يطلبه من مال (الزكاة).

والمفهوم الذي اتفق عليه المشرعون في الردة، هو أنها تعني قطع الإسلام بنية كفر، أو قول كفر، أو فعل كفر، سواءً كان القول مزاحاً أو استهزاءً أو عناداً، أو اعتقاداً. وسواء كان الفعل (إثباتاً للفعل أو

---

(١) د/ محمد علي الشهاري : تاريخ اليمن الإسلامي، الظاهرة [دراسة يسارية في نظر ا لمفهـوم الردة].
(٢) أنظر : د/ عبد الرحمن الشجاع : تاريخ اليمن قبل الإسلام حتى اية القرن الرابع الهجـري، صنعاء دار الفكر المعاصر، ط١، ١٩٩٦م، ص٨٣.
(٣) الشاطري: موقف اليمن من الرجعية الجاهلية [الردة] ص١٠-١٢ نقلاً عن د/ عبـد الـرحمن الشجاع. مرجع سابق ص٨٤ .

اقتناعاً عنه فمن جحد حكماً من أحكام الإسلام مجمعاً عليه كان كمن جحد جميعه" [(١)] ومن نصب الحرب في منع فريضة أو منع حق يجب عليه لآدمي وجب قتاله.

وجاء في القرآن الكريم :[.. ومن يرتد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون].

ويعرفها بعض الفقهاء [(٢)]، أن الردة هي الرجوع عن الذي جاء منه، إلا أنها تختص بالكفر [والمقصود بها هنا : رجوع المسلم، العاقل البالغ، عن الإسلام إلى الكفر باختياره دون إكراه من أحد] [(٣)] وبما أن الردة لغة هي الرجوع، لقوله تعالى :"ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين"..فالمرتد هو المسلم الذي غير دينه، فالردة مقصورة على المسلمين، ولا يعتبر مرتداً من يغير دينه من غير المسلمين [(٤)].

وللردة ركنان : أولهما الرجوع عن الإسلام.. وثانيهما القصد الجنائي.. والرجوع عن الإسلام أي ترك التصديق به، والرجوع يكون بأحد طرق ثلاثة :- بالفعل أو بالامتناع عن فعل، وبالقول وبالاعتقاد.. "فالرجوع عن الإسلام بالفعل يحدث بإتيان أي فعل يحرمه الإسلام إذا استباح الفاعل إتيانه سواءً أتاه متعمداً إتيانه أو أتاه استهزاء بالإسلام واستخفافاً أو عناداً

---

(١) انظر : ابن قدامة المقدسي : الشرح الكبير على متن المقنع، جـ ١٠، ص٧٧، (هامش المغـني لابن قدامة).

(٢) السيد سابق : فقه السنة ج٢ بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر، ط٣، ١٩٨١م،ص٣٨١.

(٣) نفس المرجع : ص٣٨١.

(٤) عبد القادر عودة: التشريع الجنائي الإسلامي مقارناً بالقانون الوضـعي، جـ ـ ١، القـاهرة، التراث، ص٥٣٤.

ومكابرة كالسجود لصنم أو للشمش أو للقمر ولأي كوكب، وكإلقاء المصحف وكتب الحديث في الأقذار ".." أو إتيان محرمات مع استحلال إتيانها كأن يزني الزاني وهو يعتقد أن الزنا غير محرم بصفة عامة أو غير محرم عليه، وكاستحلال شرب الخمر واستحلال قتل المعصومين وسلب أموالهم فمن اعتقد حل شي أجمع على تحريمه وظهر حكمه بين المسلمين، وزالت الشبهة في حله بالنصوص الواردة فيه كلحم الخنزير، والزنا، وأشباه هذا مما لا خلاف فيه كفر" [1].

ومن الأمثلة على الاستحلال هو ما فعله [قدامة بن مظعون]، فقد شرب الخمر مستحلاً لها وكذلك فعل أبو جندل بن سهل وجماعة معه شربوا الخمر في الشام مستحلين لها مستدلين بقول الله تعالى جل شأنه (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح في طعموا)، وعندما عرفوا تحريمه وأقيم عليهم حد الخمر فتابوا، باعتبارهم عاصين، ومن استحل محرماً بجهل تحريمه فلا يعتبر مرتداً إذا ثبت أنه يجهل التحريم ويعرف أن الفعل محرم، فإذا عاد له مستحلاً إياه فهو كافر لا شك في كفره، أما إن أتاه غير مستحل له فهو عاص لا كافر [2].

أما القصد الجنائي وهو تعمد إتيان الفعل أو القول الكفري وهو يعلم بأنه فعل أو قول كفري، أما من آتى بفعل كفري وهو لا يعلم معناه فلا

---

(١) عبد القادر عودة: التشريع الجنائي الإسلامي مقارناً بالقانون الوضعي، جـ ١، المرجع السابق، ص٧٠٧.

(٢) مواهب الجليل : جـ٦، ص٢٧٩ – ص٢٨٠ : شرح الزرقاني،جـ٨، ص٦٢-ص٦٥. اية المحتاج الجزء السابق ص٢٩٥ وص٣٩٦ المغنى دج١٠ ص :٨٥ : كذلك شـرح الأزهـار ج٤، ص٥٧٥ ص٥٧٧، نقلا عن عبد القادر عودة ج٢ مرجع سابق ص٧٠٨ .

يكفر، وعقوبة الردة تختلف باختلاف ظروف الجريمة.. ومنها عقوبة أصلية.. ومنها عقوبة بدلية، ومنها عقوبة تبعية، العقوبة الأصلية هي القتل حداً لقول الرسول صلى الله عليه وسلم : من بدل دينه فاقتلوه ... وروي عن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث : كفر بعد إيمان، وزنى بعد إحصان، وقتل نفس بغير نفس [1]، فالقتل عقوبة عامة لكل مرتد سواءً كان رجلاً أو امرأة، شاباً أو شيخاً، ولكن أبا حنيفة يرى أن لا تقتل المرأة بالردة ولكنها تجبر على الإسلام[2].

والقاعدة الأصلية في الفقة أن المرتد لا يقتل إلا بعد أن يستتاب فإن لم يتب يقتل. ولحديث معاذ الذي حسنه الحافظ : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له لما أرسله إلى اليمن : " أيما رجل ارتد عن الإسلام فادعه، فإن عاد، وإلا فاضرب عنقه، وأيما امرأة ارتدت عن الإسلام فادعها، فإن عادت، وإلا فاضرب عنقها " [3] وأخرج البيهقي والدار قطني، أن أبا بكر استتاب امرأة يقال لها " أم قرفة " كفرت بعد إسلامها، فلم تتب، فقتلها[4]. والمرأة تشارك الرجل في الحدود كلها دون استثناء، فكما يقام عليها حد الرجم إذا كانت محصنة، فكذلك يقام عليها حد الردة ولا فرق.

---

(١) انظر : سيد سابق : فقه السنة، مج٢، مرجع سابق، ص٣٨٦.

(٢) عبد القادر عودة : جـ١٢، مرجع سابق، ص٧٢٠.

(٣) السيد سابق : فقه السنة، مج٢، مرجع سابق، ص٣٨٦.

(٤) نفس المرجع : ص٣٨٦.

ويحدد الإمام مالك حدة الاستتابة ثلاثة أيام بلياليها من يوم ثبوت الكفر على المرتد من يوم الكفر ولا من يوم التبليغ.. إلا أن الإمام مالك يمنع من الاستتابة ثلاثة :

١- الساحر إذا أتى من السحر ما يعتبر كفراً فإنه لا يستتاب ويقتل.
٢- الزنديق وهو من يظهر الإسلام ويسر الكفر، فإذا ثبت عليه الكفر لم يستتب ويقتل ولو أظهر توبته.
٣- من سب نبياً أو عرَّض به أو لعنه أو عابه أو قذفه أو استخف بحقه وما أشبه، فإنه يقتل ولا يستتاب.

إلا أن المذهب الشافعي يرى عكس مالك، وهو قبول الاستتابة [١] لقوله تعالى : [قل للذين كفروا أن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف].

أما العقوبة البديلة للمرتد تكون إما أن يستبدل القاضي بالعقوبة الأصلية، بعقوبة التعزير، كالجلد، أو الحبس، أو الفراق، أو التوبيخ، أو إذا سقطت العقوبة الأصلية لشبهة، عند رأي بعض الفقهاء.

أما عقوبة التبعية والتي تخضع لعقوبة مصادرة مال المرتد، إذا مات أو قتل وهو على كفره.

وأورد "محمد أبو زهرة "[٢] قولين في استتابة المرتد، القول الأول، هو استتابة المرتد قبل قتله، كما يعرض الإسلام على المحاربين قبل أن يقاتلوا، واختلف العلماء في ذلك، يرى أبو حنيفة وأصحابه الاستتابة ثلاثة أيام ويؤيده الشافعي، ومالك والثوري و الإوزاعي .

---

(١) عودة : مرجع سابق، ص٧٢٥.

(٢) الجريمة والعقوبة في الفقه الإسلامي (العقوبة)القاهرة، دار الفكر العربي، ص١٧٤- ص١٧٥.

القول الثاني، أن الاستتابة ليست بلازمة، وإن كانت مستحسنة، وهو قول الشافعي وأحمد، ورأي الحسن البصري وحجة هذا الرأي الأخير إن الأمر بالاستتابة ليس ثابتاً، والثابت هو العموم لقول النبي صلى الله عليه وسلم (من بدل دينه فاقتلوه). "وبعض الفقهاء فصل، فقال إن كان مسلماً أصلياً لا يستتاب وإن كان قد أسلم ثم ارتد يستتاب" لأنه مظنة أن يكون جاهلاً، وأما الأول فمظنة الجهل غير ثابتة "[1].. ولا تقتصر عقوبة المرتد على قتله، بل إنها تتجاوزه إلى ماله، لأنه بمجرد ردته يصبح غير معصوم الدم، وإن كانت الاستتابة واجبة على ارجح الأقوال[2]. فإن تاب استمرت ملكيته، وإن مات أو قتل فإنه يكون ميراثاً أو فيئاً للمسلمين وفي ذلك خلاف فقهي[3] وفي مال المرتد أربعة أقوال :

١- إن مال المرتد كله إن مات مرتد أو قتل، يكون فيئاً للمسلمين، لأنه إذا كانت ملكيته ثابتة له في الدنيا، فإنه بعد وفاته لا وارث له لأن أقاربه من المسلمين لا يرثونه لأنه ليس من دينهم، لأن المرتد لا دين له.

٢- أن يكون لقرابته في الدين الذي انتقل إليه – وهذه رواية أحمد -.

٣- أن يكون ماله لورثته من المسلمين..

٤- وهو رأي أبي حنيفة إن ما كان يملكه قبل الردة يكون لورثته من المسلمين، لأن ملكه قد زال عنه بحكم موته مرتداً.. من وقت الردة، فتكون الخلافة قد تحققت حكماً من ذلك الوقت في المال الذي كان مملوكاً من وقتها، ولكن الورثة الذين يرثونه هم الذين يكونون أحياء

---

(١) محمد أبو زهرة :ا لمرجع السابق، ص ١٧٥.

(٢) نفس المرجع : ص١٧٧.

(٣) نفس المرجع : ص١٧٧.

وقت موته لا وقت ردته. " وأما ما اكتسبه في الفترة بين الردة وقتله أو موته، فإنه يكون فيئاً للمسلمين لأن الخلافة لم تحقق فيه، وما دامت الخلافة غير موجودة فإنه يكون فيئاً للمسلمين "[1].

والردة توجب التفريق بين المرتد وزوجه باتفاق الفقهاء، وإذا تاب المرتد يستأنف حياته الزوجية بعقد جديد ومهر جديد، ولا يمكن استئنافها إلا بذلك. والفرقة هنا بحكم الشرع لا بإرادة الزوج.. وإذ ارتدت المرأة فرق بينها وبين زوجها، وإذا تابت لا تستأنف حياتها الزوجية إلا بعقد جديد ومهر جديد[2].

والغرض من توضيح مفهوم الردة في الفكر الإسلامي، لما لها من أهمية في واقعنا المعاصر، وظاهرة النبوة، هي ظاهرة ارتدادية، وقد عمت الجزيرة العربية وشاركت اليمن فيها حتى أضحت ظاهرة في حاجة إلى رصد وتحليل، وكان عبهلة العنسي الذي عرف بالأسود العنسي ادعى النبوة ومعرفة الغيب[3]، والذي نجح في السيطرة على اليمن كلها.. وعندما واجهته جبهة الأبناء – وهم المولدون الفارسيون – والذين أسلموا قبل ارتداد العنسي.. ويرى [عصام الدين الفقي] أن الأسود العنسي دعا إلى التخلص من الأبناء، ومن الذين أسلموا من القبائل اليمنية.. فقد كان يرى أن الإسلام دين يخص قبائل قريش وفرض به سلطانه على اليمن. ولكن لم يكن له المنظور الوطني الذي يرى المبررون لدعوته.. قد يكون المفهوم العصبي القبلي لدى العنسي وقبائله التي أتبعته مبرراً للخروج عن الإسلام،

---

(١) محمد أبو زهرة : العقوبة، مرجع سابق، ص١٨٠.

(٢) نفس المرجع : ص١٨١.

(٣) الطبري : تاريخ الأمم والملوك، حوادث سنة ١١هـ.

لكن مسألة الخلاص من الأبناء فهي مسألة كان المفترض أن تكون قبل ميلاد الإسلام وانتشار الدعوة، ويبدو أن المتأخرين من المؤرخين هم الذين أضافوا الصبغة الوطنية للعنسي.. هل يا ترى كان الأسود العنسي يدين سراً بالديانة اليهودية ؟.. وهل أزعجه كثيراً تصفية اليهود في يثرب وتقهقرهم في كل مكان ؟.. على الرغم من أن هذا احتمال افتراضي لأن ثورة العنسي لا تحمل أي مؤشر ديني أو وطني [1].

ويشير (عصام الدين الفقي) [2] إلى أن دعوة العنسي لاقت صدىً كبيراً داخل اليمن لتحريرهم من الدخلاء، وهو منطق مرفوض.. لأن الولاة الذين تم تعيينهم كانوا رجال تعليم ديني وقد سبق الإشارة إلى دور "معاذ بن جبل" وهو من الأنصار عندما استقبله زعماء صنعاء قاموا بتوفير منزل يليق بمقام زعيم، فبكى كثيراً، وقال لهم لقد أمرني رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم مجالسة الفقراء، .. كما كان من مهامه أخذ الزكاة من الأغنياء وتوزيعها على الفقراء، فأين الجانب الوطني لدى الأسود العنسي ؟.. وقد قيل عنه ادعى الكهانة – ولم يوضح المؤرخون أو الباحثون المحدثون أي نوع من الكهانة أو الديانة التي كان يتمتع بها العنسي – ووضع خماراً على وجهه على طريقة الكهان، وإقامته في كهف، وادعاء معرفة الغيب، وأن له شيطاناً يخبره بالمستقبل.

---

(١) المعلوم أن الفكر اليهودي انتشر في وسط قبائل "مذحج" في عهد ذي نواس، وبقت جذوة منه في السر تعمل في الظلام، فلا يستبعد أن يكون العنسي أحد هؤلاء الناس المنتصرين لديانتهم.

(٢) اليمن في ظل الإسلام : مرجع سابق ص٣٩.

ويذكر بعض المؤرخين مقولة تنسب إلى العنسي [1]، يقول فيها : " أيها المتوردون أمسكوا علينا ما أخذتم من أرضنا، ووفروا ما جمعتم، فنحن أولى به، وأنتم على ما أنتم عليه ".. وقد أطلق على نفسه رحمان اليمن على غرار مدعي النبوة في اليمامة، الذي سمى نفسه (رحمان اليمامة) والملاحظ أن العصبية القبلية كان لها دور كبير، فالذين آزروه، وهم معظم قبائل مذحج، الذي هو منهم وبالذات قبائل عنس وزبيد، وبني الحارث، أما قبائل همدان وحمير وزعماء حضرموت، فلم يستجيبوا لدعوته، ولم يقدموا له ولاءً.وكانوا على النقيض من ذلك. كما يشير (الطبري)[2]- إلى أنهم قاموا بدعم الأبناء عسكرياً على الخلاص من العنسي، بعد أن قدمت عليهم رسائل من الرسول الكريم، تطلب منهم الاستمساك بدينهم والوقوف في وجه العنسي.. أما موالاة كندة للعنسي فكانت قائمة على عصبية قبلية، حيث ظنوا أن قريشا تعرض عليهم سلطانها، وقد غفلوا عن حقيقة واضحة وهي أن قبائل قريش نفسها هي التي تصدت للإسلام في مبدأ الأمر، ومن ثم لا يفرض على اليمن نظام قريش، ثم إن الولاة الموجودين في اليمن ليسوا من أبناء قريش، بل هم من القحطانيين أي من أهل اليمن، فمعاذ بن جبل، من بني أزد – أنصاري – وزياد بن لبيد، أيضاً من بني أزد – أنصاري – وأبو موسى الأشعري، من أبناء تهامة اليمن.

---

(١) الذهبي : تاريخ الإسلام، جـ ١، ص٣٤٢، نقلاً عن : د/ عصام الفـي: : مرجـع سـابق، ص٣٩.

(٢) تاريخ الأمم والملوك : ج٣ ص٢٣٢ : نقلا عن د / عبد الرحمن الشجاع مرجع سابق،ص٨٨.

وبينما كان الرسول صلى الله عليه وسلم على فراش الموت وقد سمع بخروج مسيلمة (الكذاب) في بني حنيفة والأسود العنسي في اليمن.. فقد أخبر أصحابه برؤيا رآها فقال:

" بينما أنا نائم أتيت بخزائن الأرض فوضع في كفي سواران من ذهب فكبر علي فأوحي إلي أن أنفخها، فنفختها فذهبا، فأوليتهما: الكذابين اللذين أنا بينهما: صاحب صنعاء، وصاحب اليمامة)"[(١)] .

وكان بعض هؤلاء يفرقون بين الصلاة والزكاة فيؤدون الأولى، ويمتنعون عن الثانية. وقد ظهرت وجهة نظر بين بعض من الصحابة، مبعثها الشفقة في مقاتلة هؤلاء العصاة المرتدين، إلا أن أبا بكر الصديق، وقف بقوة وصلابة وقال قولته المشهورة: (والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله لقاتلتهم عليه) [(٢)] وهذا الرفض له ما يبرره فالتنازل عن الزكاة، معناه إلغاء ركن من أركان الإسلام.

والمعلوم أن أساليب التعذيب التي استعملها (العنسي) ضد المسلمين جعل معظم القبائل تهادنه خوفاً من بطشه. كما وقف بعض زعماء همدان وحمير موقف الحياد من حركة الأسود العنسي، رغم تبادل الرسائل بينه وبينهم، إلا أنهم لم يقوموا بمساعدته ولم يقفوا ضده. أما الذين فروا بدينهم فكانوا أصحاب مواقف ذاتية وليست قائمة على قرار قبلي موحد.

---

(١) الحديث رواه البخاري : عن أبي هريرة – فتح الباري، جـ ١٦، ص٢١٣ – ص٢١٤ .

(٢) أبو محمد عبدالله بن مسلم الدنيوري بن قتيبة : الإمامة والسياسة،وهو المعروف بتاريخ الخلفاء، تحقيق محمد طه الزيني، ج٣ في (القاهرة : مكتبة مصطفى الحلبي وأولاده في ١٩٦٣م ج ١، ص١٧.

والملاحظ أن الصراع أخذ بعداً أخر عند احتدام المواجهة الكلامية بين العنسي والآخرين، كان هناك إعمال الفكر والدفاع عنه بصرف النظر عن رأي القبيلة لذلك انقسمت القبيلة إلى قسمين والقوم إلى فريقين، بمعنى أن الردة التي انتشرت بين القبائل ومنها وسط (عك والأشعريين) والتي تصدى لها واحد منهم، وهو مسعود العكي، وردة قبائل مذحج، قاومها بعض أبنائها منهم فروة بن مسيك المرادي في مراد، عمر بن الحجاج الزبيدي في زبيد، وعبدالله بن عبدالمدان في بني الحارث، وردة كندة أول من برز لها جماعة من كندة نفسها، وكان منهم شرحبيل بن السبط الكندي، فلما نابذوهم العداء خرجوا إلى المدينة ليعودوا فيما بعد مع الجيش الإسلامي مقاتلين المرتدين من أبناء قبيلتهم[1].

وبدأ، دور الدولة الإسلامية بعمل جاد وذلك ببعث الرسل للزعماء الثابتين على دينهم الإسلامي، من أجل تجميعهم وتنظيمهم في جبهة واحدة ضد المرتدين. والجانب الثاني هو إعداد جيش وتجهيزه على شكل فرق عسكرية للقضاء على المرتدين.

لقد كان الهدف من المراسلة، هو العمل على التعبئة الإعلامية ضد العنسي، الذي علم الرسول (ص) عنها قبل وفاته، وأدرك أنها حركة ارتدادية فاشلة.. أما الجانب العسكري فقد أعد جيش في عهد الرسول الكريم، بقيادة أسامة بن زيد للتوجه إلى الشام وتوفي الرسول الكريم قبل ذهاب الجيش، وفي عهد الخليفة أبي بكر الصديق، أمر الجيش

---

(١) الطبري : تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص٣٣٤ عن : د / عبد الرحمن الشجاع،مرجع سـابق ص٩٥.

بالذهاب إلى الشام لمواجهة الجيش البيزنطي.. وكانت توجيهات الخليفة واضحة لمن أرسلهم أن يتجمعوا في مناطق حددها لهم وينتظروا هناك أوامره.

وكانت الرسل التي بعث بها أبو بكر، كان الرسول صلى الله عليه وسلم قبل وفاته قد بعث برسله إلى الزعماء الثابتين على دينهم، وطلب منهم الاتصال بالزعماء المتعاطفين مع دعوة أهل الردة بالعودة إلى الإسلام. كما كرر لهم أبو بكر الصديق ذلك.. وتحققت الأهداف المرجوة وتخلصت الجبهة الإسلامية السرية المضادة لحركة العنسي من العنسي دون أن يكلف ذلك الدولة الإسلامية شيئاً يذكر في عهد النبي، وتخلص رجال الحركة من أعوان العنسي، حيث تم القبض على قيس بن مكشوح المرادي والقضاء على التجمعات القبلية الأخرى في تهامة، وبلاد السراة، ونجران، دون أن تبذل الدولة جهداً من مال ورجال.

وما أن عاد جيش أسامة من الشام حتى قام أبو بكر الصديق بإعداد ثلاثة جيوش.

الأول : مهمته التوجه نحو تهامة بقيادة (سويد بن مقرن المازني) الثاني: جيش بقيادة (عكرمة بن أبي جهل) ويضم سبعمائة فارس، إضافة إلى من انضم إليهم من المتطوعين المسلمين، ومهمته التوجه نحو نجد. وهناك اشتبك بجيش مسيلمة، ولكنه لم يوفق فتوجه نحو البحرين، ثم عمان، ومنها إلى المهرة، فدعاهم إلى الإسلام فاستجاب بعضهم وقاوم البعض الآخر ثم سلم في آخر المطاف، ثم انضم جيش عكرمة إلى زياد بن لبيد البياضي أمير إقليم حضرموت، لتشديد الخناق على كندة المعاندة. الجيش الثالث : بقيادة المهاجر بن أبي أمية، ويضم عدداً من المهاجرين

والأنصار، كما انضمت إلى صفوفه الفرق العسكرية المتمركزة في الطائف وبلاد السراة ونجران، ومنها قسم قواته إلى فرقتين الأولى، تكون بقيادة عبدالله بن أبي أمية، ومهمته تتبع من تبقى من المرتدين في بلاد السراة وأطراف تهامة. والفرقة الأخرى، تولى المهاجر نفسه قيادتها، ومهمتها تتبع من بقي من أتباع الأسود العنسي في مذحج، فاقتحم بهم بلاد مذحج من الشمال، وتمكن من القبض على قيس بن مكشوح المرادي وعمرو بن معد يكرب الزبيدي وأرسلهما إلى أبي بكر. وواصل المسير نحو صنعاء، كما توجه المهاجر إلى حضرموت لمناصرة زياد بن لبيد البياضي، فخرج ماراً بمدينة مأرب، وتلقى الأوامر من الخليفة بالتوجه نحو حضرموت ليكون في رأس الضلع الثالث في المثلث المحاصر لكندة في حصن (النجير)، الوقع في قلب حضرموت، والآخران زياد وعكرمة. وتم القبض على الأشعث بن قيس وإرساله إلى الخليفة أبي بكر، فاعتذر الأشعث وتاب وزوجه الخليفة أخته تأليفاً لقلبه وتكريماً له ومسحاً لكل ما علق في قلبه من ضغائن وإحن.

خلاصة القول : سبق الإشارة إلى دور الأسود العنسي، إلا أن ديانته اختلف فيها الرواة، منهم من زعم أن العنسي أسلم ثم ارتد وادعى النبوة ومنهم من قال إنه بقي على دينه الذي لم يثبت عن ماهيته، ولذلك لم يعتبروه مرتداً . ويرى آخرون أنه كان وثنيا بدليل استعماله للخمار على وجهه، وهذه صفة الكهان الوثنيين.. إلا أن الملابسات حوله تخضع ديانته إلى إيجاد تحليل غير دقيق من قبل الباحث، على أنه كان يهودياً بحكم انتمائه إلى قبيلة كانت تدين بالديانة اليهودية.. المهم أن دعوته لم تلاق قبولاً إيديولوجياً، فبعد قتله شهر باذان أخذ امرأة باذان واعتبرها زوجة

له.. وتزعم حركة الأبناء فيروز نصير العنسي سابقاً وقام باغتياله ليلاً، واجتث رأسه وألقى به إلى أنصاره خارج القصر، ودار قتال بين أنصار العنسي والمسلمين، وهزم فيها أنصار العنسي.. وعلم الرسول بخبر مقتل العنسي قبل وفاته، وبذلك فشلت حركة العنسي، وعادت القبائل الموالية للعنسي للإسلام،وعاد معاذ بن جبل إلى التنقل داخل اليمن يفقههم في الدين ويصلى بهم. على أن حركة الردة عادت من جديد إلى اليمن بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وتولية أبي بكر الصديق الخلافة، حيث شملت الجزر العربيةكلها.. على أن أكثر حركات التمرد كانت بزعامة (قيس بن عبد يغوث بن مكشوح وانضم إليه من المرتدين عامة والعنسيين خاصة، ولمار رأى فيروز بن باذان والي صنعاء، أن حركة قيس موجهه إليه و إلى قومه من الأبناء غادر صنعاء، ولجأ إلى أخواله من بني خولان واجتمع إلى فيروز جماعة من قبائل خولان.. وظهرت جبهتان قويتان متعاديتان في اليمن، الأولى يتزعمها قيس وأنصاره المرتدون عن الإسلام والمعادية للأبناء (من الفرس) والمسلمين من القبائل اليمنية، والجبهة الثانية هي من تمسك بدينه وعقيدته الإسلامية، ويتزعمها فيروز وأنصاره من الأبناء والمسلمين. ودارت رحى المعارك بين الجبهتين، وبالقرب من صنعاء دارت معركة نهائية انتصر فيها المسلمون وانهزم قيس وأصحابه.. وتم القبض على قيس بن مكشوح وإرساله إلى الخليفة الذي عفى عنه وزوجه بأخته، بعد اعتذاره عن ما حصل.. من جهة أخرى قضى المهاجر على زعماء التمرد من أنصار العنسي، وتم تصفية المرتدين الخارجين عن الإسلام في كل شبه الجزيرة العربية وبصفة خاصة في بلاد اليمن، ودخل

أهل اليمن الإسلام زرافات ووحدانا : وارتفعت راية الإسلام في كل بلاد اليمن مبشرة بحياة جديدة وعصر جديد.

وأصبحت اليمن ولاية من ولايات الخلافة. كما حررها الإسلام من النفوذ الخارجي، ومن نفوذ الأقيال و الأذواء الذين عاملوا مواطنيهم معاملة تنطوي على الجور والظلم. وأصبحت اليمن ولاية إسلامية وتنقسم إدارياً إلى ثلاث وحدات إدارية هي:

- صنعاء
- الجند
- حضرموت .

الفصل الثالث

مشاركة اليمنيين في الفتوحات الإسلامية

الفصل الثالث

مشاركة اليمنيين في الفتوحات الإسلامية

بعد حروب الردة وانتصار الدعوة الإسلامية في اليمن، وأطمئن اليمانيون إلى الدين الجديد ، وتوحدت الصفوف تحت قيادة الدولة الإسلامية في المدينة المنورة، ولكي تسيطر سيادة دولة المدينة على الأقاليم التي خضعت للدعوة الإسلامية.. كانت الدعوة الجهادية تجوب البلدان التي أعتنتقت الإسلام ومنها اليمن.. واندفعت القبائل اليمنية صغيرهم وكبيرهم ملبين دعوة الجهاد بقلوب مؤمنة. وانخرطوا ضمن تشكيلات القوات العسكرية الإسلامية المتجهة نحو الشام والعراق.

وقد حاول بعض المؤرخين إن يقللوا من دور القبائل العربية واليمنية بوجه خاص، على أن القبائل هذه اندفعت نحو الجهاد بغرض الكسب المادي. لكن الحقيقة عكس ذلك، لقد كان لقوة الدعوة في نفوس الناس أثر فعال , وكان القصد من الجهاد ، هو دعوة المشركين إلى دين الإسلام، وقتالهم إذا لم يقبلوا [1].إلا أن ما اتفق عليه أئمة الفكر الإسلامي، أن الدعوة الإسلامية كانت ذات وجهين، الأول، الدعوة إلى الإسلام وسماحته ، فإذا رفضوا يلزمهم الجزية ، وترفع الجزية عن من أسلم وإذا قاوموا ورفضوا الإسلام أو الجزية يكون القتال وهو الخيار

---

(١) / عبد الرحمن الشجاع : اليمن في صدر الإسلام، دمشق، دار الفكر، ص١ ١٩٨٧ ص٢٩٧.

الثالث.. ومنع الخليفة أبو بكر الصديق من كان مرتداً من الاشتراك في جيش الدعوة الإسلامية ولم يسمح إلا لمن استقام وآمن بالإسلام (١) .

والجهاد فرض على كل مسلم قادر على حمل السلاح، ويقول سبحانه وتعالى (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله. فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير) (٢) .

والجهاد هنا أمر مطلق لا يشترط أن يبدأ الكفار (٣). ويعتبر الجهاد ضرورة عقائدية لتحقيق الإسلام في الأرض وتحريره من عبادة العباد إلى عبادة الله.

فالدعوة الجهادية كانت عامة، وكان أجر المشترك في العمل الجهادي هو إحدى الحسنيين الشهادة أو الفتح. وجاء نص الدعوة الجهادية إلى أهل اليمن من الخليفة أبي بكر الصديق، توضح الهدف من المشاركة الجهادية : كما هو واضح في نص الدعوة التالية.

(من خليفة رسول الله إلى من قرئ عليه كتابي هذا من المؤمنين والمسلمين من أهل اليمن، سلام عليكم، فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو.. أما بعد فإن الله تعالى كتب على المؤمنين الجهاد، وأمرهم أن ينفروا خفافاً وثقالاً، ويجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والجهاد فريضة مفروضة والثواب عند الله عظيم.. وقد استنفرنا المسلمين إلى جهاد الروم بالشام، وقد سارعوا إلى ذلك، وقد حسنت بذلك نيتهم، وعظمت

---

(١) الطبري : تاريخ الأمم والملوك،ج١ ص٣٤٧.. انظر كذلك ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج٢،ص٣٨٥ كذلك ابن كثير البداية والنهاية ج٦،ص١٠٤ .

(٢) سورة الأنفال : الآية (٣٩) .

(٣) القرطبي، محمد بن أحمد : الجامع لأحكام القرآن ج٢ ص٣٤٦ ص٣٥٣.

حسنتهم.. فسارعوا عباد الله إلى ما سارعوا إليه، ولتحسن نيتكم فيه فإنكم إلى إحدى الحسنيين إما الشهادة، وإما الفتح والغنيمة.. فإن الله تبارك وتعالى لم يرض من عبادة الله بالقول دون العمل، ولا يزال الجهاد لأهل عداوته حتى يدينوا بدين الحق، ويقروا لحكم الكتاب. حفظ الله دينكم، وهدى قلوبكم، وزكى أعمالكم ورزقكم أجر المجاهدين الصابرين) [1] .

ومن النص السابق نلاحظ أنه تبين غرضان، الأول إبلاغ الدعوة الإسلامية.. والثاني مقاتلة غير المسلمين حتى يدينوا بدين الحق، والإقرار بتحكيم كتاب الله.

وقد حمل أنس بن مالك كتاب خليفة المسلمين.. وكان كل من قرأ عليه ذلك الكتاب ويسمع القول، يرد عليه نحن سائرون وكأنا قد فعلنا - ويقول أنس بن مالك إنه انتهى به المطاف إلى الزعيم ذي الكلاع)، وبعد سماعه إلى الخطاب دعا بفرسه وسلاحه ونهض في قومة من ساعتة.. وأمر تجمع الجنود، وعسكرتهم.. وقام فيهم خطيباً، وقال : (ثم قد دعاكم إخوانكم الصالحون إلى جهاد المشركين واكتساب الأجر العظيم فلينفر من أراد النفير معي الساعة [2] .

(1) أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي (غبن عساكر) : ذيب تاريخ دمشق الكـبير ج١ ص١٢٩- ص١٣٠.

(2) محمد بن عبد الله الزدي : تاريخ فتوح الشام : تحقيق / عبد المنعم عبدالله عامر، مؤسسة سجل العرب، ١٩٧٠م القاهرة سلسلة من التراث،ص١٠١.

وعاد أنس بن مالك من اليمن في ١١ رجب ١٢هـ، وبشر أبا بكر بقدوم أهل اليمن وقال له (.. قد أتوك شعثاً غبراً أبطال اليمن وشجعانها وفرسانها وقد ساروا إليك بالذراري والحرم والأموال) [١] .

ولم تكن تلك رغبة أهل حمير فقط بل تبعها قبائل (همدان) وعلى رأسهم حمزة بن مالك الهمداني) [٢] .

وأمر الخليفة الصديق بتوجيه الجيوش إلى الشام والعراق بعد أن اجتمع لديه العرب بما فيهم القوات اليمانية، وخرج سعد بن أبي وقاص، وجيشه من المدينة يضم مجاميع قبلية، من قبيلة السكون وحدها أربعمائة يرأسهم حصين بن قمبر النجيبي، ومعاوية بن خديج السكوني، ويضم ستمائة مقاتل من قبيلة حضرموت، ويقود الصدق شداد بن ضحح وكان فيهم ألف وثلاثمائة مقاتل من أبناء قبائل مذحج.. وفي معركة القادسية كان الأشعث بن قيس الكندي على ألف وسبعمائة من أهل اليمن وأمرَّ عمر بن الخطاب سعد بن أبي وقاص عام١٤هـ بألفي مقاتل من اليمنيين ضمن إمدادات أخرى .

وكان الخليفة عمر بن الخطاب يقول (والله لأضربن ملوك العجم بملوك العرب، فلم يدع رئيساً ولا ذا رأي ولا ذا شرف ولا خطيباً ولا شاعراً، إلا رماهم به فرماهم بوجوه الناس وغررهم) [٣] .

---

(١) يحيى بن الحسين أنباء أبناء الزمن، ٩ (مخطوط) نقلاً عن : د / عبد الرحمن الشجاع، مرجع سابق ص٣٠٢.

(٢) الأزدي : مرجع سابق ص٣٩.

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج٣ ص١٤٧.

ولما ضاقت الأرض بفرسان القادسية، طلب الإمدادات من عمر بن الخطاب فأمدهم بسبعمائة مقاتل يتزعمهم (قيس بن مكشوح المرادي-اليمني – قدموا عليه من الشام ولما بدأ بناء مدينة الكوفة نزل الكثير من قبائل كندة فيها، وممن أقام بها من زعمائهم الأشعث بن قيس، وأمرؤ القيس بن عابس من بني عمرو بن معاوية، كما سكن الكوفة من غير كندة من اليمانية (جعفي والسكون) واستقرت جموع من اليمانية في البصرة.. واشترك في الفتوح من أهل اليمن في بلاد الشام (بهراء، وكلب، وسليح، وتنوخ، وخزام، وغسان) وقاموا بدورهم في فتوح الشام) [1].

كما اشتركت قبائل الأزد في معركة اليرموك.. وفيهم من (حمير) ومن همدان، وخولان، ومذحج، وخشعم، وكندة، وحضرموت، وزبيد، ومن كنانة.. وكان معظم المقاتلين من أبناء اليمن [2] .

ومن نتائج فتوح الشام استقرار بعض القبائل اليمنية فيها. ومنهم قوم من كندة، ومن حضرموت بينما فضل البعض منهم الإقامة في مدينة (حمص) في سوريا كما نزل في الشام الكثير من قبائل السكون [3]. وأقاموا في دمشق واللاذقية، والأردن والمناطق الواقعة بين حمص ودمشق، وكان على أهل حضرموت يوم فتح حمص " "السمط بن الأسود" علي بن معاوية من كندة.. ولما بنى " عمرو بن العاص " مدينة الفسطاط "بمصر"

---

(١) محمد بن علي الأهدل الحسيني : نشر الدر المكنون في فضائل اليمن الميمون، ط١ القاهرة مطبعة زهران ص٤١.

(٢) ابن عساكر التاريخ الكبير،ج١،ص٢٤٣ .

(٣) أبو محمد الحسن أحمد بن يعقوب الهمداني : الإكليل،ج٢ ص٢٠٦ (تحقيق / محمد علي الأكوع) .

أنزلهم في ظاهرها، وأطلق عليهم أهل الظاهر ... وأقاموا حول المركز الرئيسي لكل عشيرة (خطة) أي مقراً تسمى بها[1] وسكن فيها أفراد تلك العشائر وكل مجموعة في منطقة محددة.. كذلك أبقى "عمرو بن العاص": فريقاً من جيش من قبائل يمانية في الجيزة لوقف أي عدو زاحف مرتقب.

كما توافد اليمانيون على الأقاليم التي دخلها المسلمون فاتحين في شمال أفريقيا، في المغرب والأندلس (أسبانيا)، ولهم قلاع وخطط في هذه البلاد منها [قلعة الهمداني في الأندلس].

وقد تم في عهد عمر بن الخطاب، إجلاء نصارى نجران في اليمن إلى الشام والعراق، بسبب ممارستهم الربا في التجارة وازداد ثراؤهم، وقوي اقتصادهم، وضعف أمر المسلمين في منطقة نجران بجوار هؤلاء النصارى، فخاف الخليفة " عمر " مغبة ذلك فاشترى منهم أراضيهم وأجلاهم منها.

ويمكن القول إن الفتح الإسلامي صاحبه بناء المدن الجديدة للمقاتلين العرب في الأراضي المفتوحة، فكان أن تأسست البصرة عام ١٦هـ والكوفة عام ١٧هـ ثم الفسطاط عام ٢١هـ وأعدت لتكون مراكز ثغور أمامية يعسكر فيها الجند العرب، لترقب العدو القادم[2] .

(١) تقي الدين بن أحمد بن على المقريزي : الخطط، ص٢٤٣.. نقلاً عن : د/ عصام الدين الفقي : اليمن في ظل الإسلام، مرجع سابق، ص٥٠.

(٢) د/ محمد أمين صالح : تاريخ اليمن الإسلامي في القرون الثلاثة الأولى للهجرة (عصر الولاة)، القاهرة، مطبعة الكيلاني ط١، ١٩٧٥م، ص٧٦.

وأختطت كل قبيلة " مكاناً لإقامتها ، كما أخذت بعض العشائر اليمنية نصيبها في الاستقرار والإقطاع، وحدد لهم العطاء من بيت المال.. وفي الكوفة أقام نساب العرب (سعيد بن نمران الهمداني).

بتعديل نظام التكلات القبلية، وجعلها أسباعاً، فكانت بجبلة وخثعم، وكندة، وحضرموت والأزد، سبعاً، .. وصارت مذحج وحمير وهمدان وحلفاؤهم سبعاً.. وكان العطاء يسلم إلى قادة الأسباع وبدورهم يسلمونه إلى العرفاء والنقباء والأمناء فيدفعونه إلى ذويهم، [1] كما أقطع أراضٍ في الكوفة لكل من " أبي موسى الأشعري " و "جرير بن عبد الله البجلي " و " الأشعث بن قيس الكندي" [2].

والملاحظ كما سبق الإشارة إلى أن الشام قد تفرقت بها العناصر اليمانية في مدنها.. فكان أهل مدينة "حمص" جميعاً يمنيين من كندة وحمير وهمدان وكلب، وغيرهم من بطون القبائل اليمنية.. كما كان معظم من نزلوا دمشق من العناصر اليمنية، كما كان أغلب الأشعريين هم الأغلبية في مدينة طبرية من جند الأردن، أما جند فلسطين فكان أخلاطاً من العرب والعجم ومن لخم وجذام وعاملة وكندة وقيس كنانة[3].

وفرض الخليفة عمر بن الخطاب، لأهل اليمن، وقيس بالشام، والعراق لكل رجل ما بين ألفين إلى ألف درهم، وإلى تسعمائة إلى خمسمائة إلى ثلاثمائة درهم، ولم يُنقص أحداً عن ثلاثمائة درهم، وقال:

---

(١) الطبري : تاريخ الأمم والملوك، جـ ٤، ص٤٨، ص٤٩.

(٢) اليعقوبي : كتاب البلدان، ص٧٥.

(٣) نفس المرجع : ص٨٦.

لئن كثر المال لأفرضن لكل رجل أربعة آلاف درهم : ألفاً لسفره وألفاً لسلاحه، وألفاً يخلفه لأهله، وألفاً لفرسه ونعله[1].

في عهد معاوية بن أبي سفيان زاد أعطيات العناصر اليمنية بوجه خاص كونها ناصرته وحاربت معه، بل زادها عن أعطيات القيسية، فارتفع بذلك شأن اليمانية، قويت شوكتها، وكان العطاء يمنح سنوياً في (بداية السنة الهجرية).

وفي عهد يزيد بن معاوية، زاد أعطيات اليمانية مما زاد من هجراتهم من بلاد اليمن إلى بلاد الشام – بصفة خاصة – وانضموا إلى جيوش الدولة الأموية، وتمتعوا بامتيازات منحها لهم كل من معاية وابنه يزيد. وقد حرص المهاجرون اليمنيون المشاركين في الفتوحات الإسلامية على الخروج بنسائهم وأولادهم وأموالهم.

لقد كانت مسألة الفتوحات الإسلامية عملاً حركياً جديداً دخيلاً على نظام القبائل باعتبار أن القضية تحمل وجهين : الأول دعوي مع فتح البلدان البعيدة عن بلدانهم. والوجه الثاني، هو الاستقرار والبقاء في تلك المناطق.. وتطلب الأمر أن يحمل المجاهد معه المال والبنين.

ونورد رواية لعلها توضح تلك القضية الحيوية الجديدة وهي : أن جماعة من قبيلة (خثعم) أتت من اليمن، ونزلت المدينة المنورة وكان على رأسهم (ابن السهمين الخثعمي) فلما التقوا بالخليفة قال له : إنا قد تركنا الديار والأموال والأصول، وأقبلنا بنسائنا وأبنائنا، ونحن نريد جهاد المشركين، فماذا ترى لنا في أولادنا ونسائنا ؟ أنخلفهم عندك ونمضي

(١) البلاذري : فتوح البلدان، ص ٤١٣.

فإذا جاء الله بالفتح بعثنا إليهم فأقدمتهم علينا ؟ أم ترى أن نخرجهم معنا ونتوكل على ربنا ؟

فرد أبو بكر أنه لو سمع هذا قبل خروج الناس لاحتبس عيالاتهم عنده، ليكون المسلمون ليس معهم من النساء والأولاد ما يشغلهم ويهمهم حتى يفتح الله عليهم، ولكن الناس قد مضوا ، وله بجماعة من المسلمين أسوة [1].

إذن فهو خروج القصد منه عدم العودة، ابتداء.. كما يرى بعض المؤرخين [2].. ومن المؤكد أن استنفار أهل اليمن للجهاد ، جعلهم يخرجون بكل إمكانياتهم المادية ، نصرة للحق الدعوي الإسلامي فقد روي أن الخليفة (عمر بن الخطاب) استنفر أهل اليمن إلى أن يتجهوا نحو الشام والعراق، فهاجرت قبائل يمنية تلبية للدعوة، سكنوا في مدينتي البصرة والكوفة [3].

وجاء إلى الخليفة (عمر بن الخطاب) زعيم الخارجيين (قيس الخارجي الهمداني)، يقول له : إن أهله يريدون الهجرة معه. فكتب الخليفة إلى واليه في اليمن أن يقوم بتجهيزهم [4].

---

(١) الأزدي : فتوح الشام، مرجع سابق،ص٢٥-ص٢٦.

(٢) د / عبد الرحمن الشجاع : تاريخ اليمن في صدر الإسلام،مرجع سابق، ص٣١٢.

(٣) ابن سمرة الجعدي : طبقات فقهاء اليمن، ص٣٨ – ص٣٩نقلاً عن : د / عبد الرحمن الشجاع مرجع سابق ص٣١٢.

(٤) محمد بن سعد : الطبقات الكبرى، دار بيروت ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨، ج٦، ص١٢٩ – ص١٣٠.

وكان أمام المسلمين جبهتان قويتاة، الأولى جبهة العراق، في مواجهة الفرس، والذين كانوا أكثر عدد وعدة وقوة وتنظيم، الجبهة الثانية هي الجبهة البيزنطية (الروم) في الشام، وكانت في قوتها وعدتها متساوية مع قوة فارس وكانت تلك الدولتان أقوى دولتين في عالم ذلك الحين

وكان مركز تجمع المقاتلين هو المدينة المنورة، ومنها يتم توزيعهم على جبهات القتال. وكانت تقسم المجاميع القتالية إلى السرايا، والطلائع والمسالح، والكمين، والمدد والكردوس، والركبان، والخيل[1] وجرى سير المعارك وفقاً لتوجيهات القيادة العسكرية في المدينة المنورة والتي يرأسها الخليفة نفسه، ولذلك كان عليه أن يصدر قراره بتعيين قائدا عاما للجيوش المتوجهة نحو القادسية وكذلك للجيوش المتوجهة نحو اليرموك. ومن مهام القائد تقسيم جنوده بحسب العرف الجاري في الحروب.. ففي معركة اليرموك، كان في ميمنة الجيش الإسلامي الأزد، ومذحج، وحضرموت، وحمير، وخولان، وفي موقعة القادسية كانت قبيلة (بجيلة – اليمنية) في ميمنة الجيش، ومعها قبائل النخع وكندة ، ومراد ،وهمدان، وخثعم.. والأزد [2].

وتولى والي البصرة "أبو موسى الأشعري " قيادة الجيوش الإسلامية، لفتح العديد من المناطق الفارسية والتركية ومنها اصطخر ونصيبين

---

(١) أبو سعيد الشعراني الهرثمي : مختصر سياسة الحروب،ص٢٦ –ص٢٨: نقلاً عـن : د/ عبـد الرحمن الشجاع،مرجع سابق، ص٣١٦.

(٢) أحمد عادل كمال : القادسية، ص٢٢٣ – ص٢٢٥ نقلاً عن:عبد الرحمن الشجاع، ص٣١٧.

والأهواز [1]. وفي الشام كان خالد بن الوليد ، قد قسم عساكره إلى ثلاثة أقسام،فجعل ثلثها تحت قيادته وثلثاً يقوده (قيس بن مكشوح المرادي) وثلثاً يقوده (ميسرة العبسي).. كما كان قيس بن مكشوح المرادي يشارك خالد بن الوليد في الخطط العسكرية في بلاد الشام.. وكان أبو عبيدة بن الجراح يستشير في أموره أحد زعماء خولان. وهو (قيس بن عبادة بن الحارث).

من جانب آخر نلاحظ الدور الذي لعبه بعض الزعماء اليمنيين. فقد بعث ، (عمر بن الخطاب) كتابا إلى سعد بن أبي وقاص، أن يستعين بالله على الفرس – لشدة بأسهم وقوتهم _ ويبعث إلى ملكهم (يزدجرد) رجالاً من أهل الجدل في لمناظرة والرأي والحكمة ، يدعونه إلى الله ، فأرسل سعد وفداً مكوناً من أربعة عشر رجلاً من وجهاء المسلمين، كان منهم : (الأشعث بن قيس) و (عمر و بن معد يكرب الزبيدي) [2].

ويشير الطبري إلى المواقف الفردية التي لفتت الأنظار كالبطولات التي وصف بها (عمرو بن معد يكرب الزبيدي) الذي كان يقوم بذبح المقاتل الفارسي ذبحًا وكان يحث المقاتلين على القتال ويقول " إن الفارسي إذا فقد قوسه فإنما هو تيس ".

نخلص إلى القول بأن الفتوحات التي شارك فيها المقاتلون اليمنيون تتمحور على النحو التالي:

---

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، جـ٢، صـ٤٥٦.. كذلك الطبري : الأمم والملوك، جـ٣، صـ ٤٩٥ – صـ ٥٠١..

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج٢، ص٤٥٦ انظر أيضاً : الطبري : تاريخ الأمم والملوك ج٣، ص٤٩٥ –ص٥٠١.

- أولاً : الاستقرار في المناطق التي تم فتحها.. كما تفرقت بطون القبائل إلى جميع الجهات التي تم فتحها في مصر والشام والعراق، والمثل على ذلك قبيلة (همدان) فقد توزعت ما بين العراق بزعامة (سعيد بن قيس الهمداني) والشام وعلى رأسهم (حمزة بن مالك بن سعيد الهمداني) ومصر، وكذلك بقية القبائل اليمنية.

- ثانياً : في مجال القضاء نلاحظ أن أبرز قضاة الكوفة هو (شريح بن حارث الكندي) الذي تتلمذ على يد معاذ بن جبل (في اليمن) وقد استمر قاضياً ثلاثاً وخمسين عاما حتى استقال من عمله في عهد والي العراق الحجاج بن يوسف الثقفي. كذلك ولي القضاء (مالك بن شرحبيل الهمداني) في مصر، في عهد الخليفة (عمر بن الخطاب) .

- ثالثاً : لقد أتاحت الفتوحات الإسلامية فرصة مناسبة لمن شارك في حركة الردة سابقا وعاد للإسلام، وينطبق هذا على الزعماء اليمنيين الذين تزعموا هذه الحركة، وأسلموا وآمنوا وحسن إسلامهم، وهم: الأشعث بن قيس الكندي ، وعمرو بن معد يكرب الزبيدي، وقيس بن مكشوح المرادي.

ويتضح ذلك من موقف الأشعث بن قيس في يوم القادسية، والذي وقف يحث قومه، ويحث المسلمين جميعاً ويقول : (لا تجزعوا من القتل، فإنه أماني الكرام ومنايا الشهداء، فترجل وقاتل) [1] .

---

(١) ابن تغري بردي (النجم الزاهر، ج١ ص٢٩ نقلاً عن : د عبد الرحمن الشجاع، مرجع سابق ص٣٢٨ .

الفصل الرابع

موقف القبائل اليمنية من الخلاف السياسي

بين علي ومعاوية

الفصل الرابع

موقف القبائل اليمنية من الخلاف السياسي

بين علي ومعاوية

كان خطر الفتنة التي راح أبو سفيان يشعل نارها بين علي والعباس، وبين بني هاشم وسائر بطون قريش، وسوس لنصرة بني أمية ونصرة قريش من ورائها، كما وسوس لآخرين بمثل ذلك. وكان يرغب بالوقيعة التي يخذلهم بها جميعاً ويخرج منها بالسيادة الأولى التي كانت له على قريش في الجاهلية.

وقد حسمت الفتنة بانعقاد البيعة لأبي بكر والذي كان مشتغلاً بدفن الرسول ودعي إلى سقيفة بني ساعدة مرتين ولم يكن يعلم سبب فيم يدعي ويعتذر باشتغاله ويغضب لدعوته ،حتى همّ َعمر بن الخطاب بمبايعة أبي عبيدة بن الجراح قبل أن يزيد الخلاف بين الخزرج والأوس (الأنصار)، والمهاجرين(قريش)..

وكان علي في تلك الساعة العصيبة إلى جوار الجثمان الطاهر المسجى في حجرته فدخل عليه أبو سفيان قائلاً : " (يا أبا الحسن هذا محمد قد مضى إلى ربه وهذا تراثه لم يخرج عنكم فابسط يدك أبايعك " فرفض، فيقول له عمه العباس: يا ابن أخي هذا شيخ قريش قد أقبل فامدد يدك أبايعك ويبايعك معي. وإنا إن بايعناك لم يختلف عليك أحد من بني عبد مناف، وإذا بايعك بنو عبد مناف لم يختلف عليك قريشي، وإذا بايعتك

قريش لم يختلف عليك بعدها أحداً من العرب فيجيب علي : -(لا والله ياعم إني لأكره أن أبايع وراء رتاج)[1] .

إلى أن علي بن أبي طالب قد كان أحكم في جوابه هذا من شيخ الدهاة من بني هاشم، وشيخ الدهاة من بني أمية، لقد تمت البيعة على الوجه الذي عرفه التاريخ، فإن يكن هناك جدال فلا جدال بين المؤرخين المنصفين في فضل من أدركوا الفتنة قبل مسعاها من السقيفة ومسعاها من دار أبي سفيان، وكانت السيدة فاطمة ترى حق علي في الخلافة. أو ترى أن قرابة النبي أحق المسلمين بخلافته،واجتمع في منزل من يناصرها الرأي من الصحابة وتشاوروا فيما بينهم على عدم شق عصا الجماعة أو بالسعي في تأليب الناس على نقض البيعة، وبعد مساجلات بينهم وبين أبي بكر وعمرأ سفرت الفتنة عن مقصدها وتكشفت الدسيسة التي بيتها أبو سفيان فقد عاد أبو سفيان يعرض مبايعتة على علي ويتحفز للوقيعة فصده علي وقال له إنك تريد أمراً لسنا من أصحابه (فلما يئس من هذا طرق باباً آخر لعله يدخل منه إلى مأربه، وذهب إلى العباس يقول له : (أمدد يدك يا أبا الفضل أبايعك فلا يختلف عليك القوم) ثم يقول : أنك والله لأحق بميراث ابن أخيك) فيرده العباس كما رده علي،وجاءت قضية (فدك) وهي قرية كان النبي يقسم فيئها بين آل بيته وفقراء المسلمين، فلما توفي الرسول بعثت فاطمة إلى أبي بكرتسأله ميراثها فيها وفيما بقي من خمس خيبر فقال أبو بكر (إن رسول الله صلى الله عليه وسلم) كان يقول إننا معشر الأنبياء لا نورث. وما تركناه صدقة. وإني والله لا أغير شيئا من صدقة رسول الله عن حالها التي كان عليها). ويقال إن فاطمة

---

(١) عباس محمود العقاد : فاطمة الزهراء والفاطميون ص٥٥.

الزهراء احتجت عليه بقوله تعالى عن نبي من أنبيائه زكريا (يرثني ويرث من آل يعقوب) وقوله تعالى (وورث سليمان داود) [١] .

لكن أبا بكر الصديق قال لها يا بنت رسول الله أنت عين الحجة ومنطق الرسالة لا يد لي بجوابك ولا أوقعك عن صوابك، ولكن هذا أبا الحسن بيني وبينك هو الذي أخبرني بما تفقدت وأنبأني بما أخذت وتركت [٢] .

والحديث في هذه المسألة لا تنتهي إلى منتهى القول ... اتفقت الآراء السياسية للمؤرخين، عن العصر الإسلامي الأول على القول إن الركنين الأساسيين الضروريين لبناء الدولة والحفاظ عليها هما : الجند والمال، وعبارة (الملك بالجند والجند بالمال تتكرر في تلك المؤلفات كإحدى بديهيات الفكر السياسي.. والدعوة المحمدية، قد تحولت إلى دولة، عندما غدا في إمكانها تجنيد الرجال والحصول على المال، وكان ذلك بعد الهجرة إلى المدينة، كان المهاجرون والأنصار هم الجند وكانت مساهمتهم التطوعية أولاً ثم الغنائم التي كانوا يستولون عليها من عدوهم ثانياً، كل ذلك كان مصدر المال الذي كانوا يتجهزون به [٣] .

ويرى الجابري : إن إسلام القبائل إسلاماً سياسياً وهو اعتراف بزعامة الرسول صلى الله عليه وسلم وكانت الزكاة في منظور هذه القبائل هي نفس (الإتاوة) التي كان العمل جارياً بها قبل الإسلام وهو المقدار من المال

---

(١) نفس المرجع ص ٥٦.

(٢) العقاد مرجع سابق ص٥٦.

(٣) د / محمد عابد الجابري : نقد العقل العربي (٣) العقل السياسي العربي، بيروت، مركز الدراسات الوحدة العربية، ط٣، ١٩٩٥م ص١٦٥.

الذي تأخذه قهراً القبيلة المنتصرة من القبيلة المنهزمة، كانت الإتاوة عبارة عن ضريبة تدفعها القبيلة ما دام ميزان القوى يفرضه عليها ذلك وبمجرد تغيير ميزان القوى تسارع القبيلة للامتناع عن دفعها.. ولعل ذلك ما كان يضايق تلك القبائل التي رفضت أن تدفع الزكاة لأن ذلك في نظرها رمزا للخضوع والمهانة، لقد كانت الإتاوة هي الشيء الوحيد الملموس الذي يحصل به التمييز في المجتمع القبلي بين القبيلة السيدة صاحب الملك والقبائل المسودة[1].

وتجمع المصادر على أن أبا بكر الصديق كان يوزع في الحين ما يرد عليه من أموال الغنائم (فلا يبقى في بيت المال شيء) وكان يسوي في قسمته بين الناس السابقين منهم والمتأخرين في الإسلام، بين الحر والعبد، والذكر والأنثى، وكان يشتري الألبسة ويفرقها في الأرامل في الشتاء.. ولما توفي الصديق، جمع عمر بن الخطاب الأمناء وفتح بيت المال فلم يجدوا فيه شيئاً غير دينار فقط سقط من غرارة[2].

كان بيت المال يعتمد في ماليته على ما يؤخذ من العدو وحين الغزو بدون قتال وهو الفيء، أو بقتال وهو الغنيمة، أما الزكاة فمقدارها قليل وهي للفقراء والمساكين خاصة.. ثم أصبح لبيت المال موردان اقتصاديان ثابتان هما اقتصاد الغنيمة، الذي يقوم على أمرين اثنين (الخراج) وضمنه الجزية من جهة.. والعطاء من جهة أخرى (الناس كلهم عيال على الخراج وأهله) وهو جوهر الاقتصاد (الريعي) وكان يقوم على (التفضيل) وليس على التسوية، وترتيب الناس في العطاء حسب القرابة من الرسول والسابقة

(١) نفس المرجع : ص١٦٥.

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج٢،ص٢٩٠.

في الإسلام.. مما أوجد نوعاً من اليسار ، أو تكديس الثروة في أيدي مجموعة معينة ، وبالتالي كان لا بد من أن يورث فوارق كبيرة بين المسلمين في الثروة تتسع باتساع حجم الغنائم والخراج.. وكان الخليفة الثاني عمر قد لاحظ هذه الظاهرة أذ ينسب إليه أنه قال آخر أيامه (إني كنت قد تألفت الناس بما صنعت في تفضيل بعض على بعض وإن عشت هذه السنة ساويت بين الناس فلم أفضل أحمر على أسود ولا عربياً على أعجمي ، وصعنت كما صنع رسول الله وأبو بكر) [1] .

إلا أن عمر بن الخطاب عمل على اتخاذ جملة من التدابير (الوقائية) لمنع توظيف الثروة (ثروة العطاء) في إنتاج مزيد من الثروة.. وهكذا نلاحظ أن ابن الخطاب قد حجز على أعلام قريش من المهاجرين الخروج من المدينة المنورة، إلى أقاليم (البصرة) والكوفة والشام، إلا بإذن وزمن محدد ، فشكوه فبلغه ، فقام فقال : إلا إني قد سننت الإسلام سن البعير (قارنت تطوره بمراحل البعير) يبدأ فيكون جذعاً ثم ثنياً ثم رباعياً ثم سداسياً ثم بازلاً (في التاسعة) ألا فهل ينتظر بالبازل إلا النقصان ألا فإن الإسلام قد بزل. ألا وإن قريش يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عبادة أما وابن الخطاب حي فلا ، إني قائم دون شعب الحرة آخذ بحلاقيم قريش وحجزها أن يتهافتوا في النار [2].

وكان قد شدد على المهاجرين بوجه خاص باعتبارهم من أبناء قريش ومنعهم من الخروج من المدينة المنورة وإذا استأذنه أحدهم بالمشاركة في الغزو ، ليتمكن من مغادرة المدينة ، قال له : (قد كان في غزوك مع

(١) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي : ج٢ ص١٠٧.

(٢) تاريخ الطبري : تاريخ الأمم والملوك :ج٢،ص٦٧٩.

رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما يبلغك، أي ما يكفيك كسابقة في الإسلام، وخير لك من الغزو اليوم ألا ترى الدنيا ولا تراك (١).

كما لجأ عمر إلى مشاطرة أموال عماله، يأخذ نصف أموالهم، وشاطر أبي هريرة رضي الله عنه وقال له من أين لك هذا المال ؟ فقال له أبو هريرة :(دواب تناتجت وتجارات تداولت). فقال "عمر "إذن الشطر. وإنما شاطرهم حين ظهرت لهم أموال بعد الولاية لم تكن تعرف لهم. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا قدم عليه العمال يأمرهم أن يدخلوا نهاراً ولا يدخلوا ليلاً كي لا يحجبوا شيئاً من الأموال (٢).

وتشير المصادر أيضاً إلى أن عمر بن الخطاب منع الفاتحين من اقتناء الضياع والاشتغال بالزراعة حتى يضمن بقاءهم جنوداً مستعدين للغزو، وكان ينهاهم عن التطاول بالبناء، ويحكى أنه بلغه أن سعد بن أبي وقاص اتخذ قصراً بالكوفة وجعل عليه باباً.. وقال : انقطع الصوت، فأرسل عمر رضي الله عنه محمد بن مسلمة فقال له ائتِ سعداً فأحرق عليه بابه ففعل (٣).

لذلك يقال (لم يمت عمر حتى ملته قريش.. والسؤال المطروح هو هل كانت قريش وراء خنجر قاتله أي أبي لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة، وذلك لخلو المصادر التاريخية بمختلف مشاربها، عما يمكن أن يزكي مثل هذا

---

(١) نفس المرجع ص١٧٩.

(٢) أبو بكر / محمد بن الوليد الطرطوشي : سراج الملوك، الإسكندرية : المطبعة الوطنية، ١٢٨٩هـ ص٢٤٣-ص٢٤٤.

(٣) نفس المرجع :ص٢٤٣.

الافتراض. وذلك حينما فضل أغلبية الناس من قريش، عثمان بن عفان على علي بن أبي طالب في عملية الشورى.

كان عثمان بن عفان غنياً، ولم يكن حديث عهد بالغنى والثروة، بل كان ذا مال، منذ ما قبل الإسلام، وساهم مساهمة كبيرة في النفقة في (سبيل الله) زمن الدعوة المحمدية. وعندما اغتيل الخليفة عمر بن الخطاب كان من أكبر الصحابة سناً، إذ بويع وعمره يناهز السبعين عاماً. وكان معروفاً بلينه وكرمه ودماثة خلقه، ثم إنه من عائلة كبيرة من بني أمية، وقد فضله أهل الحل والعقد، وفي مقدمتهم أصحاب الأموال مثل (عبد الرحمن بن عوف) و (الزبير بن العوام) و (طلحة)، وفضلوه على علي بن أبي طالب الذي كان شاباً متشدداً زاهداً في المال، يفرق ما يناله منه على الفقراء. وضعاف الناس، فكان (صديق المساكين) يلتف حوله قدماء المتسضعفون، والمستضعفين الجدد.

ويشير ابن قتيبة أن ما أن ولي عثمان "حتى بدأت مظاهر الغنى في الانفجار) وسرعان ما استفحلت حتى لقد بيعت الجارية بوزنها ورقاً وبيع الفرس بعشرة آلاف دينار وبيع البعير بألف دينار، والنخلة الواحدة بألف"[1].

ويشير الطبري [2]، على أن أول منكر ظهر بالمدينة حين فاضت الدنيا وانتهى وسع الناس طيران الحمام والرمي على الجلاهقات (بندق يرمى به الطير)، وحدث أن انتشر بين الناس النشو (السكر). وزاد في انفجار الترف تزايد حجم المال المتدفق على (المركز) خاصة من الخروج فعندما

(١) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة،ج١ ص٢٧.

(٢) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج٢، ص٦٨٠.

فتح المسلمون العراق التي كانت تحت النفوذ الفارسي سقط إيوان كسرى بيد المسلمين، وأخرجوا من خزائن كسرى مائتي ألف بدرة في كل بدرة أربعة ألاف (البدرة كيس من جلد تحفظ فيه النقود) أي ما مجموعه (٨٠٠ مليون دينار) [1]. كما بلغت جباية مصر وحدها (١١٢) مليون دينار [2].

أما غنائم أفريقيا فقد كان سهم الجندي (= الراجل الذي لا يمتلك بعيراً أو فرساً) ألف دينار، وقيل بلغ سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار، وكان مجمل عدد الجيش العربي عشرون ألفاً. وتشير بعض المصادر [3] ، أن المسلمين صالحوا بطريرك أفريقية بمليونين ونصف مليون دينار. وكان ذلك ثلاثمائة قنطار من الذهب. وكان نصيب كل فارس منها ثلاثمائة آلف مثقال من الذهب، وكان الخمس الذي أرسل إلى العاصمة إلى الخليفة عثمان يبلغ (٥٠٠) ألف دينار أعطى منها عثمان مائة ألف دينار (الخمس) لأبن أبي سرح قائد الحملة وكان من أقاربه.

وكثر الخراج على عثمان وأتاه المال من كل وجه له الخزائن وأدار الأرزاق، وكان يأمر للرجل بمائة ألف بدرة في كل بدرة أربعة آلاف أوقية، وصار عثمان ينفق من (بيت المال) يعطي أقاربه وغيرهم، وكأنه يتصرف في ماله، ويقال إنه أعطى للحكم بن أبي العاص بن أمية (طريد

---

(١) شمس الدين محمد بن محمد بن عثمان الذهبي :تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، بيروت، دار الكتاب العربي،١٩٨٧م (عهد الخلفاء الراشدين) ص٣٣١ : نقلاً عن د / محمد الجابري : مرجع سابق ص ١٨٢.

(٢) اليعقوبي : تاريخ اليعقوي،ج٢،ص١١٥ .

(٣) الطبري : مرجع سابق،ج٢ ص٥٩٨- ٥٩٩ .

رسـول الله) مائـة ألـف   وابنـه مـروان خمـس غنـائم إفريقيـة ، مـن الخمـس المخصص (لذوي القربى).

وروي أن والي الكوفة الوليد بن عتبة أخا عثمان لأمه أقترض من بيت المـال مبلغـاً ولم يسـدده ، فتقـدم إليـه عبـدالله بـن مسـعود عامـل بيـت المـال يطلب منه سداده ، فماطل فاشتكاه إلى عثمان فأجابه هذا الأخير قـائلاً : (إنما أنت خازن لنا فلا تتعرض للوليد فيمـا أخـذه مـن مـال).. فاسـتقال ابـن مسعود وقال :كنت أظن أني خازن للمسلمين ، فأما إذا كنت خازناً لكم فـلا حاجـة لـي في ذلـك.. كـذلك سمـع عثمـان بـالخروج مـن المدينـة لأولئـك الذين كان عمر بن الخطاب قد حبسـهم فيهـا مـن كبـار الأغنيـاء ، وتـرك النـاس يمارسـون التجـارة بطـرق مختلفـة وقـام هـو بنفسـه بـإقرار تـدبير فـتح البـاب لأنواع من الاتجار والمضـاربة (في أسـهم) المقـاتلين وأعطيـاتهم..وبـدأت مظاهر الاستياء والتذمر داخل مجتمع المدينة.فجمعهم عثمان وخطب فيهم فقال :-

(يـا أهـل المدينـة ، إن النـاس يتمخضـون بالفتنـة ، وإنـي والله لأتخلصـن لكم الذي لكم حتى أنقله إليكم إن رأيتم ذلك ، فهل ترونه ؟ حتـى يـأتي من شهد مع أهل العراق الفتوح فيه فيقيم معه في بـلاده.؟) وتضيف الروايـة أن المسـتمعين وافقـوا وقـالوا : (" كيـف تنقـل إلينـا مـا أفـاء الله علينـا مـن الأرضـين يـا أمـير المـؤمنيين ؟) فقـال : (نبيعهـا ممـن شـاء بمـا كـان لـه بالحجاز) ففرح القوم (فافترق القوم وقد فرجها الله عنهم) [1] .

وخلاصة القول إن الذين شاركوا في القتال في العراق ، ورغبوا العـودة إلى المدينة كانت الضرورة تقتضي بيع ممتلكاتهم ممـا اشـتروه هنـاك مـن

(١) نفس المرجع ص٦١٤ نقلاً عن د / محمد عابد الجابري ، مرجع سابق،ص١٨٣ .

عقار وغيره لمن رغب بالبقاء هناك، وكان الذي يقوم بالبيع هم الضعفاء.والذين يقومون بالشراء هم الأغنياء الذين استمرؤوا البقاء هناك.. وكان من نتائج هذه التدابير أن تركزت ثروات هائلة في أيدي جماعة قليلة من الصحابة ورجال قريش فاتسعت الهوة بين الأغنياء والفقراء وزاد في اتساعها توقف الفتح وتكاثر النسل وهجرة الأعراب إلى الأمصار.

الكل في المجتمع " الناس فيه عيال على الخراج وأهله" إنه وضع يهدد بالانفجار. لقد أوجد الخليفة عمر بن الخطاب، طريقة جديدة وهي أهل "الشورى"، وبعد أن صار الحكم لعثمان أصبح بقية أهل الشورى خصوصاً منهم طلحة والزبير وعلي بن أبي طالب، رموزاً تستقطب قوى المعارضة في العاصمة – المدينة المنورة – ضد عثمان وبني أمية. وكانت العلاقة بين هذه الشخصيات تقوم على المنافسة، إلا أن علي بن أبي طالب لم يكن من أصحاب المال من جهة. وللتنافس بين طلحة والزبير في مجال المال والتجارة من جهة أخرى.. ونتج عن ذلك وضع سياسي "مريض" استمر نحو خمس سنوات، ومن المآخذ على عثمان، عزله للعمال تلبية لرغبة هذا الجانب أو ذاك، اعترافه بالخطأ وإعلان توبته، ضعفه أمام منافسيه، الزبير وطلحة وعلي.

وكان الزبير قد اقتنى ثروة ضخمة منها أنه بنى داراً بالبصرة، فينزل بها التجار من البحرين وغيرهم، وكان له دار أيضاً "بمصر"، والكوفة،والإسكندرية، وكان له ضياع أخرى ودور غير معلومة وبلغت ثروته بعد وفاته خمسين ألف دينار، وألف فرس، وألف عبد وأمة "[1].

(١) أبو الحسن بن الحسين المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر، جـ٢، بيروت، دار الفكر ط٥، ١٩٧٣م، ص٣٤٢.

أما ثروة طلحة بن عبيد الله التيمي فقد تمثلت ببنائه دار بالكوفة التي كانت تسمى بدار الطلحيين، وكان غلته من العراق كل يوم ألف دينار، وقيل أكثر من ذلك، كما كان له دار بالمدينة المنورة مبنيه بالآجر والجص والساج[1].

أما بقية الصحابة فقد أثروا من الفتوحات والاقطاعات التي تميزوا بالحصول عليها.. وكان الخليفة عمر قد ألزم القادة القرشيين بالبقاء بالمدينة المنورة ومنعوا من الخروج حتى جاء الخليفة عثمان بن عفان وسمح لهم بالخروج والعمل بالتجارة.. فزادت أموالهم سعة وطمح بعضهم بالسلطة.

وباختيار عثمان ابن عفان خليفة للمسلمين قدم عليه عمه الحكم بن أبي العاص وابنه مروان وغيرهما من بني أمية – والحكم هو طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي غربه عن المدينة، ونفاه عن جواره-. وعندما بدأ بتشكيل حكومته بدأ بأهله ومنحهم مناصب لا يستحقونها ومنهم الوليد بن عقبة ابن أبي معيط الذي عين والياً على الكوفة وهو ممن أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنه من أهل النار[2]. وشكاه أهل الكوفة بأنه يشرب الخمر جهاراً مع ندمائه ومغنيه من أول الليل إلى الصباح [فلما أذن المؤذن بالصلاة خرج متفضلاً في غلائله، فتقدم إلى المحراب في صلاة الصبح، فصلى بهم أربعاً، وقال أتريدون أن أزيدكم؟] فقال له من كان

(١) أبو الحسين المسعودي : مروج الذهب ,معادن الجوهر، جـ٢، بـيروت، دار الفكـر ط٥، ١٩٧٣م، ص٣٤٢.

(٢) المرجع نفسه ص ٣٤٤.

خلفه في الصف الأول : (والله لا أعجب إلا ممن بعثك إلينا والياً وعلينا أميراً [1]) .

(١) نفس المرجع : ص٣٤٤. " وأشاعوا بالكوفة فعله، وظهر فسقه ومداومته على شرب الخمر فهجم عليه جماعة من المسجد، منهم أبو زينب بن عوف الأزدي، وجندب بن زهير الأزدي وغيرهما، فوجدوه سكران مضطجعاً على سريره لا يعقل، فايقظوه من رقدته، فلم يستيقظ ثم تقيأ عليهم ما شرب من الخمر، فانتزعوا خاتمه من يده وخرجوا من فورهم إلى المدينة، فأتوا عثمان بن عفان فشهدوا عنده على الوليد أنه شرب الخمر، فقال عثمان : وما يدريكما أنه شرب خمراً ؟ فقالا : هي الخمر التي كنا نشر ا في الجاهلية، وأخرجا خاتمه فدفعاه إليه، فزجرهما ودفع في صدورهما، وقال : تنحيا عني، فخرجا من عنده وأتيا علي بن أبي طالب وأخبراه بالقصة، فأتى عثمان وهو يقول : دفعت الشهود، وأبطلت الحدود، فقال له عثمان : فما ترى ؟ قال : أرى أن تبعث إلى صاحبك فتحضره، فإن أقاما الشهادة عليه في وجهه ولم يدرأ عن نفسه بحجة، أقمت عليه الحد، فلما حضر الوليد دعاهما عثمان فأقاما الشهادة عليه ولم يدل بحجة فألقى عثمان السوط إلى علي، فقال علي لابنه الحسن : قم يا بني فأقم عليه ما أوجب الله عليه فقال يكفينه بعض من ترى، فلما نظر إقتناع الجماعة من إقامة الحد عليه توقياً لغضب عثمان لقرابته منه أخذ علي السوط ودنا منه، فلما أقبل نحوه سبه الوليد، وقال: يا صحاب مكس، فقال عقيل بن أبي طالب وكان ممن حضر ! إنك لتتكلم يا ابن أبي معيط كأنك لا تدري من أنت، وأنت علي من أهل صفورية – وهي قرية بين عكا واللجون، من أعمال الأردن، من بلاد طبرية، وكان ذكر أن أباه كان يهودياً منها – فأقبل الوليد يروغ من علي فاجتذبه علي فضرب به الأرض وعلاه بالسوط، فقال عثمان: ليس لك أن تفعل به هذا، قال بل وشراً من هذا إذا فسق ومنع حق الله تعالى أن يؤخذمنه) ص٣٤٥.
انظر أيضاً ابن الأثير : الكامل في التاريخ، بيروت، دار الكتب العلمية، مج٣،ط١،١٩٧٧، ص٢٩ ص٣٠.

وفي عام ٣٣هـ بدأت تتشكل قوى المعارضة ضد الخليفة عثمان، فبعد إقالة الوليد بن عقبة من عمله، كلف سعيد بن العاص بدلاً عنه، واختار وجوه الناس، وأهل القادسية، وقراء أهل الكوفة، ليكونوا جلساءه، ولكن سياسته هذه لم تفلح حيث تجاذبت الناس ذكر من أتوا إلى الكوفة فقراء وأضحوا أغنياء[1].

ويذكر " الطبري " أنه لم تمض سنة عن خلافة عثمان حتى اتخذ رجال من قريش أموالاً في الأمصار وعلى رأسهم طلحة والزبير، وانقطع الناس إليهم وتبقوا سبع سنين " الأولى من خلافة عثمان والتي لم تظهر الانتقادات ضده. كل قوم يحبون أن يلي صاحبهم فاستطالوا عمر وعثمان " ولما كانت للزبير وطلحة أملاك وضيعات ونفوذ في كل من الكوفة والبصرة فقد استقطب كل منهما المعارضة المحلية في المدينة التي كان فيها أملاك ومماليك ونفوذ وهكذا.. " وكان هوى أهل البصرة مع طلحة، وهوى أهل الكوفة مع الزبير" .

---

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، مرجع سابق، ص٣٠ – ص٣١.. ويقول ابن الأثير، أن هؤلاء الجلساء دخلوا على سعيد بن العاص يوماً فبينما هم يتحدثون قال حبيش بن فلان الأسدي : ما أجود طلحة بن عبيد الله.. فقال سعيد : "إن من له مثل النشاستج – ضيعة في الكوفة كانت لطلحة بن عبيد الله التيمي – لحقيق أن يكون جواداً، والله لو إن لي مثله لأعاشكم الله به عيشاً رغداً " فقال عبد الرحمن بن حبيش وهو حدث.. والله لوددت أن هذا الملطاط لك – يعني سعيد – وهو ما كان للأكاسرة على جانب الفرات الذي يلي الكوفة.. فثار به الأشتر، وجندب وابن ذي الحنكة، وصعصعة، وابن الكواء وكميل، وعمير بن ضابئ، فأخذوه فثار أبوه ليمنع عنه فضربوهما حتى غشي عليهما، وجعل سعيد يناشدهم ويأبون حتى قضوا منهما وطراً. فسمعت بذلك بنوا أسد فجاءوا وفيهم طلحة فأحاطوا بالقصر، فخرج سعيد إلى الناس فقال : أيها الناس قوم تنازعوا وقد رزق الله العافية، فردهم فتراجعوا وأفاق الرجلان.. فقالا : قاتلنا غاشيتك. فقال : " لا يغشوني أبداً، فكفا ألسنتكما ولا تحزبا بالناس "ففعلا وقعد أولئك النفر في بيوتهم، وأقبلوا يقعون في عثمان".

ويشير " ابن الأثير"[(١)] إلى أنه في عام ٣٤هـ عظم الناس على عثمان ونالوا منه " ويبدو أن شدة ابن الخطاب، أظهرت عثمان على غير ما ألفه الناس [(٢)].

---

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، مرجع سابق، ص٤٣. ويضيف المرجع إلى أن الصحابة لم يحركوا ساكناً تجاه عثمان إلا نفر منهم زيد بن ثابت، وأبو أسيد الساعدي، وكعب بن مالك، وحسان بن ثابت، فاجتمع الناس وأخبروا علي بن أبي طالب فدخل علي على عثمان فقال له : " إن الناس ورائي وقد كلموني فيك، والله ما أدري ما أقول لك، ولا أعرف شيئاً تجهله، ولا أدلك على أمر تعرفه.. وقد رأيت وصحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم وسمعت منه ونلت صهره، وما ابن أبي قحافة بأولى بالعمل منك بالحق، ولا ابن الخطاب بأولى بشئ من الخير منك، وأنت أقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رحماً، ولقد نلت من صهر رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لم ينالاه، وما سبقاك إلى شئ فالله الله في نفسك ... وإن السنن القائمة لها أعلام، وإن البدع لقائمة لها أعلام، وإن شر الناس عند الله إمام جائر ضل، وأضل فأمات سنة معلومة، وأحيا بدعة متروكة ... وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " يؤتى يوم القيامة بالإمام الجائر وليس معه نصير ولا عاذر فيلقي في جهنم فيدور في جهنم كما تدور الرحى ثم يرتطم في غمرة جهنم" وإني أحذرك الله وسطواته ونقماته فإن عذابه شديد أليم.. فقال عثمان : قد علمت والله ليقولن الذي قلت أما والله لو كنت مكاني ما عنفتك ولا أسلمتك، ولا عبت عليك، ولا جئت منكراً إن وصلت رحماً.. أنشدك الله يا علي، هل تعلم أن المغيرة بن شعبة ليس هناك ؟ قال نعم. قال: فتعلم أن عمر ولاه ؟ قال نعم، قال فلم تلومني إن وليت ابن عامر في رحمه وقرابته ؟ قال علي : إن عمر كان يطأ على ضماخ من ولي إن بلغه عنه حرف جلبة ثم بلغ به أقصى العقوبة، وأنت لا تفعل ضعفت ورفقت على أقربائك.. فقال عثمان : هل تعلم أن عمر ولي معاوية ؟ فقد وليته، فقال علي : أنشدك الله هل تعلم أن معاوية كان أخوف لعمر من " يرفأ" غلام عمر له ؟ قال نعم، قال علي : فإن معاوية يقتطع الأمور دونك، ويقول للناس هذا أمر عثمان وأنت تعلم ذلك.
ثم خرج على من عنده وخرج عثمان على إثره، فجلس على المنبر، ومما قاله : " ألا فقد والله عبتم علي ما أقررتم لابن الخطاب بمثله ولكنه وطأكم برجله، وضربكم بيده، وقمعكم بلسانه فدنتم له علي ما أحببتم وكرهتم، ولنت لكم وأوطأتكم كتفي، وكففت يدي ولساني عنكم فاجترأتم علي، أما والله لأنا أعز نفراً، وأقرب ناصراً، وأكثر عدداً.. إن قلت هلم أتى إلي، ولقد عددت لكم أقراناً وأفضلت عليكم فضولاً "، ص٤٤.

(٢) تشير " " بوجينا غيانة شتشيجنسكا : تاريخ التشريع الإسلامي، بيروت، دار الآفاق الجديدة، ط٢، ١٩٨٣، ص٨٥، إلى أنه لما توفي عمر بن الخطاب، شاعت الأخبار أن لأبي لؤلؤة القاتل الفعلي لعمر شركاء في قتله منهم الهرمزان وجفينة، وكان الهرمزان من أبناء منطقة الحيرة، أحضره سعد بن أبي وقاص إلى المدينة ليعلم الناس الكتابة، فأسرع عبيد الله بن عمر، وأمسك بالسيف وقتل الهرمزان وأراد أن يقتل جفينة، فأخذوه وسجنوه واستشار عثمان الصحابة في ذلك فبعضهم أشار بقتله قصاصاً وبعضهم قال : قتل عمر بالأمس ويقتل ابنه اليوم، فقال عثمان : أنا ولي المسلمين اليوم قد جعلتها دية، واحتملتها من مالي، وكان ذلك حلاً حسناً لتلك القضية.."

لقد انكر علي بن أبي طالب وطلحة والزبير على عثمان في إيثار قرابته وضعفه أمام العمال من أقربائه.. وسمح عثمان للمهاجرين بالإقامة في البلاد المفتوحة وامتلاكهم الأراضي بتلك البلاد وأصبح عدد كبير منهم من كبار الأثرياء، مما أدى إلى تذمر العرب الذين كانوا يقيمون في الأمصار.. وازداد سخطهم على عثمان وولاته لحرمانهم من أموال الفيء والغنائم، وطالبوا الخليفة بألا يعطي من الفيء إلا الذين قاتلوا عليه. كما حقدوا على قريش عامة وبني أمية خاصة لاعتقادهم أنهم اغتصبوا حقوقهم، وتجلت مظاهر هذا السخط في الكوفة في عهد ولاية سعيد بن العاص.

ولم يتحرج كثير من الناس في الأطراف الإسلامية عن عدم ارتياحهم لسياسة عثمان ومواجهته بالمعارضة. ومن الشخصيات التي أثارت روح السخط هو : " عبد الله بن سبأ " الذي عرف بابن السوداء – كان يهودياً من أهل صنعاء – وكان قد اعتنق الإسلام في عهد عثمان، ويبدو أنه اعتنق الإسلام ليكون له شرعية الاعتراض، وإقامة الفتنة بين الناس ضد الخليفة عثمان ابتداءً ... لذلك فقد تنقل في الامصار محاولاً إثارة الناس ضد الخليفة عثمان. وفي البصرة تأثر بدعوته كثير من العامة.. فلما رفع أمره إلى عبد الله بن عامر أخرجه منها.. فرحل إلى الكوفة يبث دعوته حيث تفاقم الاستياء بين الناس من عثمان وواليه.. ثم طرد ابن سبأ من الكوفة، فقصد الشام.. لكن معاوية ما لبث أن وقف على حركاته، فأمره بالرحيل عنها، فتوجه نحو مصر، حيث وجد أرضاً خصبة لنشر دعوته، وصار يرسل منها رسله وكتبه إلى أشياعه في البصرة والكوفة، وكان يتحدث إلى الناس بأن لكل نبي وصياً، وأن علياً وصي محمد،

وأنـه خـاتم الأوصـياء بعـد محمـد خـاتم الأنبيـاء، وبـذلك هيـأ العقـول إلى الاعتقاد بأن عثمان أخذ الخلافة بغير حق من علـي وصـي رسـول اللّه، ثـم عمد إلى إثارة الناس على عثمان وعلى ولاته بقوله : (إن عثمان أخذها بغير حق، وهذا وصي رسـول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فانهضوا في هـذا الأمـر فحركوه، وابدأوا بالطعن على أمرائكم وأظهروا الأمر بـالمعروف والنهـي عن المنكر تستميلوا الناس وادعوهم إلى هذا الأمر [1].

ومع أن علي بن أبي طالب، كان يعي مركزه هذا ويتصرف على هذا الأساس، لذلك كانت معارضته لعثمان يشوبها نوع من التردد، أما طلحة والزبير، فقد كانا المحركين للثورة على عثمان، وكانا من وراء الرسالة التي بعثت إلى الأمصار، باسـم الصحابة تـدعوا المجاهـدين إلى القـدوم إلى المدينة، وجاء فيها : (من المهاجرين الأولين وبقية الشورى إلى من بمصر من الصحابة والتابعين وبعد، فإن كتاب اللّه قد بدل وسنة رسـوله قـد غـيرت وأحكام الخليفة قد بدلت، فننشد اللّه من قرأ كتابنـا مـن بقيـة أصـحاب رسـول اللّه والتـابعين بإحسـان ألا أقبـل علينـا وأخـذ الحـق لنـا وأعطانـاه فأقبلوا إلينا.. غلبنا على حقنا واستولى علـى فيئنـا وحيل بيننـا وبـين أمرنـا) وواجـه الأشـتر النخعـي زعيم ثـوار الكوفـة طلحـة بالرسـالة فلـم ينكـر، وكـان يحـرض الفـريقين.. أهـل الكوفـة وأهـل البصـرة جميعهـا علـى عثمان[2].

ولما وصل ابن سبأ إلى الشام لقـي أبـا ذر الغفـاري، فقـال : يـا أبـا ذر ألا تعجب إلى معاوية (يقول المال مال اللّه إلا أن كل شـيء للّه كـأنـه يريـد أن

---

(1) الطبري مرجع سابق، ج٣،ص٣٧٨ – ص٣٧٩.

(2) المرجع نفسه .

يحتجمه دون المسلمين ويمحو باسم المسلمين)، وكان معاوية آنذاك عاملا لعثمان على الشام، فأتاه أبو ذر وقال : ما يدعوك إلى أن تسمي مال المسلمين مال اللّه ؟ قال : (يرحمك اللّه يا أباذر ألسنا عباد اللّه والمال ماله والخلق خلقه والأمر أمره، قال : فلا تقله.. قال :فإني لا أقول إنه ليس مال اللّه ولكني سأقول مال المسلمين). أما ابن سبأ فقد أخرج من بلاد الشام وتوجه نحو مصر، فاستوطنها، وبدأ يدلي برأيه في مسألة الوصاية والرجعة ووجد له مستمعين يصغون إليه.. فقال لهم لعجب ممن يزعم أن عيسى يرجع، ويكذب بأن محمد يرجع، وقد قال اللّه عز وجل (إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) [١] فمحمد أحق بالرجوع من عيسى، قال : فقيل ذلك عنه ووضع لهم الرجعة فتكلموا فيها، ثم قال لهم بعد ذلك : إنه كان ألف نبي ولكل نبي وصي، وكان علي وصي محمد، ثم قال : محمد خاتم الأنبياء وعلي خاتم الأوصياء. ثم قال لهم بعد ذلك : إن عثمان أخذها بغير حق وهذا وصي رسول اللّه، فانهضوا في هذا الأمر فحركوه وابدأوا بالطعن على أمرائكم وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تستميلوا الناس وادعوهم إلى هذا الأمر. فكاتب أنصاره في الأمصار، وكاتبوه، ودعوا في السر إلى ما عليه رأيهم، وجعلوا يكتبون إلى الأمصار بكتب يضعونها في عيوب ولاتهم ويكاتبهم إخوانهم بمثل ذلك، حتى تناولوا المدينة وأوسعوا الأرض إذاعة وهم يريدون غير ما يظهرون) [٢] .

(١) سورة القصص : آية (٨٥) .

(٢) الطبري : مرجع سابق ج٢ ص٦٤٧.

ونحن لا نستبعد الدور الذي لعبه ابن سبأ ، حيث انجر إلى نفس طرح الآخرين، مثل كعب الأحبار وهو يهودي من اليمن أيضاً وكذلك وهب بن منبه ، وهو يمني من أصل فارسي في نشر الإسرائيليات، في أواسط الصحابة والعامة.. وقد روى عنهما أبن عباس وأبو هريرة وغيرهما ، وكان من جملة الإسرائيليات، القول بالرجعة والوصية والمهدي..

ونخلص إلى النتيجة التالية : وهي أن عبدالله بن سبأ شخصية حقيقية ، وهو يهودي من اليمن أسلم في العام السابع لخلافة عثمان _ نشر فكرة (الوصي) وعندما قتل علي نشر فكرة (الرجعة ، والوصية) وكانت المعارضة بشكل عام تمارس حقها في النقد ، فعندما كان معاوية والياً على الشام كان عبادة بن الصامت الأنصاري – أحد النقباء ليلة العقبة و شهد بدراً وولي قضاء فلسطين وسكن الشام كان يقوم بحملة ضد أنواع من البيوع كان يلابسها الربا ويذكر للناس حديثاً نبويا يقول (الذهب بالذهب مثلاً بمثل وسواء بسواء وزنا بوزن يداً بيد.فما زاد فهو ربا والحنطة بالحنطة قفيزا بقفيز يدا بيد فما زاد فهو ربا). مستنكرا بذلك بيع الذهب بأكثر من وزنه فاستدعاه معاوية وسأله عن هذا الحديث فأكد له أنه سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم فقال معاوية اسكت عن هذا الحديث ولا تذكره، فقال له : بلى وإن رغم أنف معاوية ، ثم قام فقال معاوية ما نجد شيئا أبلغ فيما بيني وبين أصحاب محمد من الصفح عنهم [1].وقام معاوية بإرسال عبادة بن الصامت إلى المدينة بناء على طلب الخليفة عثمان بن عفان بعد أن شكاه إليه معاوية .

(١) أبو القاسم علي بن الحسن بن عساكر : تهذيب تاريخ دمشق الكبير، هذبه ورتبه عبد القـادر بدران، ط٢ ج٧ (بيروت :دار المسيرة،١٩٧٩) ج٧ ص٢١٥ .

أما أبو ذر الغفاري في هذا المجال، وكان بالشام يقوم بحملة ضد معاوية، من ذلك أن معاوية بنى دار الخضراء فذهب إليه أبو ذر وقاله له : (يا معاوية يقول إن كانت هذه الدار من مال اللّه فهي الخيانة وإن كانت من مالك فهذا الإسراف) وكان أبو ذر الغفاري يقول واللّه لقد حدثت أعمال ما أعرفها.. وللّه ما هي في كتاب اللّه ولا سنة نبيه واللّه إني لأرى حقاً يطفأ وباطلاً يحياً وصادقا يكذب.. فقال حبيب بن مسلمة لمعاوية إن أبا ذر يفسد عليك الشام فتدارك أهله إن كانت لكم به حاجة، فكتب معاوية إلى عثمان فيه، فكتب عثمان إلى معاوية " أما بعد فاحمل جندباً – اسم أبي ذر – إلي على أغلظ مركب وأوعره, فوجه معاوية من سارية الليل والنهار.. فلما قدم أبو ذر المدينة جعل يقول لعثمان تستعمل الصبيان، وتحمي الحمى وتقرب الطلقاء، فنفاه عثمان إلى الربذة خارج المدينة فلم يزل بها حتى مات.

وكان عمار بن ياسر أيضاً أحد أبرز المعارضين، وكان رجلاً حركياً صدامياً، تنسب الروايات إليه دوراً رئيسياً في تحريك الثورة ضد عثمان، من ذلك ما يذكره المؤرخون : (من أنه اجتمع أناس من أصحاب النبي صلى اللّه عليه وسلم فكتبوا كتاباً ذكروا فيه ما خالف فيه عثمان من سنة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وسنة صاحبيه، ثم تعاهد القوم ليدفعن الكتاب في يد عثمان.. وكان ممن حضر الاجتماع، عمار

بن ياسر [1] والمقداد بن الأسود، وكانوا عشرة فلما خرجوا بالكتاب ليدفعوه إلى عثمان والكتاب في يد عمار.. وهناك تركوا عماراً يواجه الموقف لوحده وهربوا فمضى حتى جاء عثمان، فاستأذن عليه فأذن له في يوم شات فدخل عليه وعنده مروان بن الحكم، وأهله من بني أميه فدفع إليه الكتاب فقرأه فقال له : أنت كتبت هذا الكتاب ؟ قال نعم : قال ومن كان معك ؟ قال كان معي نفراً تفرقوا فرقاً منك. قال من هم ؟ قال لا أخبرك بهم قال : فلم اجترأت علي من بينهم ؟ فقال مروان يا أمير المؤمنين إن هذا العبد الأسود (عمار) قد جرأ عليك الناس وإنك إن قتلته نكلت به من وراءه، قال عثمان اضربوه فضربوه وضربه عثمان معهم حتى فتقوا بطنه فغشي عليه فجروه حتى طرحوه على باب الدار ،فأمرت به أم سلمة زوج النبي صلى الله عليم وسلم – وكانت من بني مخزوم وعمار حليف هذه القبيلة، وغضب فيه بنو المغيرة – المخزوميون – وكان حليفهم فلما خرج عثمان لصلاة الظهر عرض له هشام بن الوليد بن المغيرة فقال : أما والله لئن مات عمار من ضربه هذا لأقتلن به رجلاً عظيماً من بني أميه).

(١) خرج ياسر بن عامر والد عمار من بلدة في اليمن يطلب أخاً له ويبحث عنه.. وفي مكة طاب له المقام فاستوطنها محالفاً أبا حذيفة بن المغيرة.. وزوجه أبو حذيفة إحدى إمائه (سمية بنت الخياط) ومنها ولد عمار تحت سقف بني حذيفة،وكان أحد الذين استجابوا للدعوة الإسـلامية، ونتيجـة لذلك أوكل تعذيبهم إلى بني مخزوم – ياسر وسمية وعمار واستشهد والداه وعاش عمار مناهضـاً للباطل..وحين وقع سوء تفاهم بينه وبين خالد بن الوليد قال الرسول الكريم (من عـادى عمـارا عاداه الله ومن أبغض عماراً أبغضه الله..) انظر خالد محمد خالد رجـال حـول الرسـول، ط٢ ١٩٧٣م ص٢٦٥.

وسمع عثمان أن معارضيه يأخذون عليه أنه يفضل أقاربه فيعين العمال والولاة منهم فدعا ناساً من الصحابة فيهم عمار. فقال لهم. إني سائلكم وأحب أن تصدقوني : نشدتكم اللّه أتعلمون أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، كان يؤثر قريشاً على سائر الناس ويؤثر بني هاشم على سائر قريش ؟ فسكتوا ، فقال:لو أن بيدي مفاتيح الجنة لأعطيتها لبني أمية حتى يدخلوها) [1].

وعندما طلب منه الثوار أن يعزل عماله ويولي عليهم (من ولا يتهم في دمائهم وأموالهم) رد عليهم قائلاً :(ما أراني إذاً في شيء إن كنت استعمل من هويتم وأعزل من كرهتم، الأمر إذن أمركم). قالوا : واللّه لتفعلن أو لتعزلن أو لتقتلن، فانظر في نفسك أو دع) فأبى عليهم وقال : (لم أكن لأخلع سربالاً سربلنيه اللّه). وفي رواية أخرى [2] قال :(واللّه لأن أقدم فتضرب عنقي أحب ألي من أن أخلع قميصاً قمصنيه اللّه وأترك أمة محمد صلى اللّه عليه وسلم بعد وبعضها على بعض) .

واجتمع قوى المعارضة وعزموا على القيام بأول انقلاب في تاريخ الدولة الإسلامية، ودخلوا المدينة (العاصمة)، ولما علم الخليفة بمقدمهم بعث إليهم يسألهم عن سبب مقدمهم وما هي مطالبهم.. فعاد رسوله يحمل 'إليه نبأ طلبهم ويتمثل بالآتي:

بأن يقوم الخليفة بعزل نفسه عن الخلافة وإلا سوف يعرض نفسه للقتل.. فاستشار عثمان مستشاريه. فأشاروا عليه بوأد الفتنة بالقوة، فقال لهم : بل نعفو عنهم ولا نؤذي أحداً فتركهم وعادوا إلى أوطانهم.. وفي

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية، مرجع سابق ج٧ ص١٧٨ .
(٢) الطبري تاريخ الأمم والملوك ج٢ ص٦٦٤.

شوال عام ٣٥هـ أقبل إلى المدينة الجماعة المعارضة من مصر ومن الكوفة والبصرة، وأظهروا أنهم يريدون الحج حتى لا يتعرض أحد لهم.. ولما قربوا من المدينة دخلوها على غفلة من أهلها وحاصروا دار الخليفة عثمان [(١)].

لم يزد هذا الحصار في بادئ الأمر الإحاطة بداره، وكان الخليفة حرا لحركة يخرج من داره ويصلى بالناس ويسعى الرسل بينه وبين المحيطين بداره. وكان الغرض من هذه الحصار هو إجبار الخليفة على تقديم استقالته من الخلافة. إلا أنه رفض التنازل عن الخلافة وقال (لا أنزع قميصاً ألبسنيه الله عز وجل وأكرمني به وخصني به على غيري ولكني أتوب وأنزع ولا أعود لشيء عابه المسلمون) .

ويشير بعض المؤرخين الباحثين [(٢)] إلى أنه ليس من شك في أنه كان بين أهل المدينة من عمل على تشجيع هؤلاء الثوار ونصرتهم ثم انضموا إلى

---

(١) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة، ج١، القاهرة،مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيـع، ص٣٩. يشير إلى أن أهل مصر جاءوا إلى المدينة يشكون ابن أبي سرح عاملهم، فكتب إليه الخليفة عثمـان كتاباً يتهدده فيه، فأبى ابن أبي سرح أن يقبل ما اه عنه عثمان وضرب بعض من أتاه به من قبـل الخليفة من أهل مصر حتى قتله، فخرج من أهل مصر سبعمائة رجل ف لوا المسـجد وشـكوا إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم. في مواقيت الصلاة ما صنع م ابن أبي سـرح، فبعثـت عائشة إلى عثمان برسالة تقوله له : قد تقدم إليك أصحاب رسول الله وسألوك عزل هذا الرجـل فأبيت إلا واحدة، فهذا قد قتل منهم رجلاً فأنصفهم من عاملك. فأرسل (محمد بن أبي بكر) واليا على مصر وخرج معه عدد من المهاجرين والأنصار، ينظرون فيما بين ابن أبي سرح، وأهل مصـر، وبينما هم على مسيرة ثلاث ليال من المدينة إذا هم بغلام أسود على بعير يخبط البعير، كأنه رجـل يطلب أو يطلب، فقال له أصحاب محمد بن أبي بكر ما قصتك. فقال أنا غلام أمير المؤمنين وجهني إلى عامل مصر فقال له رجل : هذا عامل مصر معنا قال : ليس هذا أريد، فأخبر محمـد بـأمره فأرسل إليه وقال له غلام من أنت ؟ فأقبل مرة يقول أنا غلام مروان ومرة يقول أنا غـلام أمـير المؤمنين، حتى عرفه رجل أنه لعثمان، وطلب منه الرسالة حتى أجبروه على تسليمها وفك محمد بن أبي بكر ومعه رفاقه المهاجرون والأنصار، فإذا فيه : (إذا أتاك محمد بن أبي بكر ومن معهم فاقتلهم، وأبطل كتا م وقر على عملك حتى يأتيك رأيي) فعادوا إلى المدينة غاضبين.. وعرض الكتاب على جمع من الصحابة، فحنقوا على عثمان..

(٢) د / محمد جمال الدين سرور : الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية،ص٦٦.

المحاصرين أثناء حصارهم لدار عثمان، واشتد التوتر داخل المدينة، وعلم المحاصرون لعثمان أن جنداً من الشام قد اقتربوا من المدينة دعماً للخليفة.. وكان عثمان قد كتب إلى معاوية بن أبي سفيان بالشام يقول له في كتابه : (... إن أهل المدينة قد كفروا وأخلفوا الطاعة ونكثوا البيعة، فابعث إليّ من قبلك من مقاتلة أهل الشام).. كما بعث إلى عبدالله بن عامر بالبصرة نسخة من هذا الكتاب.

وعندما وصلت أخبار المد العسكري القادم إلى المدينة، شددوا الحصار على عثمان وساءت معاملتهم له، فمنعوه من الخروج والصلاة في مسجد النبي، وحالوا دون وصول الماء إليه، إلا ما وصل إليه خفية. وقد قيل إن الحصار استمر أربعين يوماً . وكان عثمان من حين لآخر يحذر الثائرين من الفتنة ويذكرهم بآيات الله، فلا يعبأون بقوله. وبينما هو على هذه الحال إذ ناشده رجل من الصحابة يدعى (نيار بن عياض الأسلمي) أن يخلع نفسه، فرماه أحد الذين كانوا يدافعون عن الخليفة بسهم أصاب منه مقتلاً. فاستاء الثوار وطالبوا بتسليم قاتله، ولما لم يصلوا إلى تحقيق غرضهم اقتحموا دار عثمان على أهلها.. وقتلوا الخليفة، وذلك في اليوم الثامن عشر من شهر ذي الحجة ٣٥هـ [١].

وتقول الرواية إن المحاصرين تعجلوا الأمر وأحرقوا باب منزل الخليفة، فاستسلم عثمان للفداء وطلب من الذين يدافعون عنه أن ينصرفوا، وكانوا قليلين، فضربه الغافقي بن خريب العكي بحديدة كانت معه، وجاء سودان بن حمران ليضربه فأكبت عليه زوجته (نائلة بنت

---

(١) المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج٢، مرجع سابق، ص٣٥٢ ص٣٥٥ انظرأيضاً : الطبري ج٣، ص٤١١، ٤١٤. كذلك ابن الأثير، ج٣، ص٦٨ ص٧٠.

الفرافصة) واتقت السيف بيدها فقطعت أصابع يدها، وضربه بعضهم بالسيف على عنقه.. ونهبوا كل ما في البيت، ثم أتوا بيت المال ونهبوه أيضاً وأعلنوا في المدينة خبر قتله.

قتل الخليفة عثمان، وأخلص الناس إليه خارج المدينة.. ومضت خمسة أيام على وفاته، واجتمع كثير من أهل المدينة وأتوا علياً وأخذوا يلحون عليه في قبول إمامة المسلمين وقد أيّدهم في ذلك الثائرون ولكن علياً الذي كان يحرص على الخلافة من قبل أصبح الآن زاهداً فيها فلما عرضت عليه الخلافة في أول الأمر، قال دعوني والتمسوا غيري.. فإننا مستقبلون أمراً له وجوه وله ألوان لا تقوم له القلوب ولا تثبت عليه العقول، وما زالوا به حتى اضطر إلى قبول الخلافة خشية الفتنة.. وسارع كثير من أهل المدينة يبايعونه، وأبى مبايعته سعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمرو، وأسامة بن زيد، وجماعة من الأنصار منهم : حسان بن ثابت، ومسلمة بن مخلد، وأبو سعيد الخدري.. وقد بايع طلحة والزبير علي بن أبي طالب، كرهاً، بعد أن امتنعا، حيث قام مالك بن الأشتر وسلّ سيفه، وقال لطلحة إن لم تبايع أضرب بالسيف عنقك، فبايع وبايع ابن الزبير..وامتنع عن البيعة بعض من الصحابة، وبايعه بقية أهل المدينة إلا من هرب ولحق بالشام فلم يبايع.. ولما تمت البيعة، توجه علي بن أبي طالب إلى مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ليلقي خطابه السياسي باعتباره الخليفة الجديد. وجاء في خطابة : - (.. إن الله عز وجل أنزل كتاباً هادياً بين فيه الخير والشر، فخذوا بالخير ودعوا الشر، الفرائض أدوها إلى الله سبحانه يؤدكم إلى الجنة، إن الله حرم حرماً غير مجهولة، وفضل حرمة المسلم على الحرم كلها، وشد بالإخلاص والتوحيد للمسلمين، والمسلم من سلم

الناس من لسانه ويده إلا بالحق. لا يحل أذى المسلم إلا بما يجب، اتقوا الله عباده في عباده وبلاده، إنكم مسئولون حتى عن البقاع والبهائم، أطيعوا الله عز وجل ولا تعصوه) [1].

---

(١) جمال الدين سرور : مرجع سابق ص٦٨ .

الفصل الخامس

نتائج الصراع السياسي والعسكري

بين علي ومعاوية

الفصل الخامس

نتائج الصراع السياسي والعسكري

بين علي ومعاوية

بعد أن تلقى علي بن أبي طالب البيعة، صعد المنبر وخاطب العواطف القبائلية بالقول: (لا يستغني الرجل وإن كان ذا مال وولد عن عشيرته، أودفاعهم عنه بأيديهم وألسنتهم هم أعظم الناس حيطة من ورائه، وإليهم سعيه وأعطفهم عليه إن أصابته مصيبة أو نزل به بعض مكاره الأمور..لقد واجه المسلمون بعد مقتل عثمان مشكلتين من أخطر ما عرض لهم من المشكلات منذ عهد خلافة أبي بكر، الأولى تتعلق بالخلافة، والثانية تتصل بإقرار النظام وإنفاذ الحدود فيمن قتل الخليفة عثمان بن عفان.

وواضح أن الذين قاموا بالانقلاب على الخليفة عثمان، لم يكونوا من الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان، نفسه من المهاجرين والأنصار.. وإنما كانوا مجاميع من الجيوش المرابطة في ثغور البصرة والكوفة ومصر، بمعنى أن المعارضة في الداخل داخل الدائرة القرشية أو الدائرة اليمنية القبلية، لم يكن لها التوجه الانقلابي بقدر ما كان قائماً على النصيحة.

لقد كانت الحاجة والفقر تبرر تلك الانتفاضة في الأطراف إلى جانب الفساد الإداري والمالي في كل ولايات الدولة الإسلامية.. وبروز طبقة مترفة جديدة تكدست في أيديها الثروات وتزايدت الصيحات من قبل الوافدين على المدينة وهم الذين زاد تواجدهم بفعل الهجرة الداخلية.

نلاحظ ذلك من البيان السياسي الذي توجه به الخليفة عثمان إلى هؤلاء العامة جاء فيه :-

(أما بعد فإنكم بلغتم ما بلغتم بالاقتداء والاتباع، فلا تفتننكم الدنيا عن أمركم، فإن أمر هذه الأمة إلى الابتداع بعد اجتماع ثلاث فيكم : تكامل النعم، وبلوغ أولادكم من السبايا ، وقراءة الأعراب والأعاجم القرآن) [(١)].

وبدأ الخليفة علي بن أبي طالب، بتهدئة الوضع في المدينة عندما فزع كبار قريش ووجهائهم من أن يهاجمهم المتمردون على السلطة، ومنهم عبيدهم، وبدأ بعضهم يغادر المدينة.. فألقي إليهم خطاباً ذكرهم فيه بفضل (قريش وحاجته إليهم ونظره لهم وقيامه دونهم وأنه ليس له من سلطان إلا ذاك ونادى برئت الذمة من عبد لم يرجع إلى مواليه. فتذامرت السبئية (وهم الثوار ومعظمهم يمنيون قادمون من مصر والكوفة والبصرة) والأعراب وقالوا لنا غداً مثلها ولا نستطيع نحتج فيهم بشيء)[(٢)].

لقد كان أمر البيعة للمهاجرين والأنصار، وكان هوى أهل مصر مع علي وهوى أهل الكوفة مع الزبير وهوى أهل البصرة مع طلحة. إلا أن معظم المهاجرين والأنصار كانوا لا يرون في علي بن أبي طالب بديلاً..وكان قد فرض الخلافة عندما عرض عليه الثائرون.. ثم قبل الخلافة من أجل أن لا يستأثر بالأمر معاوية أقوى عمال عثمان.. وأقبل الناس فبايعوا علياً. ولكن نفراً منهم أبوا أن يبايعوا فلم يلح عليهم علي في

---

(١) الطبري : المرجع السبق، ج٢ ص٥١٩ .

(٢) نفس المرجع، ج٢، ص٧٠٢ د نقلاً عن د / محمد عابد الجابري، مرجع سابق ص١٨٨ .

البيعة ولم يسمح للثائرين في إكراههم عليها.. ومن هؤلاء سعد بن أبي وقاص، وهو أحد رجال الشورى، أبى أن يبايع وقال لعلي : ما عليك مني من بأس، فخلّى علي بينه وبين ما أراد. ومنهم عبد اللّه بن عمر، أبى أن يبايع وطلب إليه علي من يكفله لأن يلزم العافية ويفرغ من أمر الناس، فأبى أن يقدم كفيلاً، فقال له علي : ما علمتك إلا سيء الخلق صغيراً وكبيراً.. ثم قال : خلوه وأنا كفيله، وأبى البيعة قوم آخرون، من هؤلاء الذين اعتزلوا الفتنة لم يرد علي.. أن يستكرههم ولا أن يعرض عليهم أحد بسوء.. وامتنع طلحة والزبير عن البيعة فأكرها عليها. ولم يتركهما علي وشأنهما كما ترك سعد بن أبي وقاص وعبد اللّه بن عمر وغيرهما من الذين اعتزلوا الفتنة.. كان علي يعلم أن طلحة يطمح إلى ولاية الأمر..ولم يكن الزبير أقل طموحاً إلى ولاية الأمر أيضاً فلم يعفهما من البيعة.. وتمت البيعة لعلي في المدينة بعد مقتل عثمان بخمسة أيام.

والسؤال الذي كان مطروحاً هو أقتل الخليفة عثمان ظالماً ؟ وإذا كان كذلك فلا ثأر له ولا قصاص من قاتليه.. أم قتل الخليفة مظلوماً ؟ وإذاً فلا بد من أن يثأر له الإمام الجديد وينفذ في قاتليه ما أمر اللّه به من القصاص.

أما أصحاب النبي من المهاجرين والأنصار، كانوا يرون أنه قتل مظلوماً وأنه ليس للخليفة بد من الثأر بدمه، وأن أمور الدين لا تستقيم إذا ضيعت الحقوق وأهدرت الدماء ولم تقم الحدود. وهذا إذا كان شخصاً عادياً من عامة الناس، فكيف إذا كان خليفة المسلمين، وتم قتله مع سبق الإصرار والترصد.. وكان المهاجرون والأنصار يقولون ما يمنع الناس إن لم نقتص من قتلة عثمان أن يثوروا بكل من سخطوا عليه من أئمتهم

فيقتلوه.. وقد سمعهم علي وأقرهم على ذلك الرأي وطلب التمهل والأناة حتى تستقيم الأمور ويقوى سلطان الخليفة في الأمر ثم ينظر في القضية بعد ذلك فيجري الأمر فيها على ما قضى اللّهُ رسوله في الكتاب والسنة.

أما الرأي الأخر يتمثل بالمتمردين الثائرين كانوا يرون أن الخليفة قتل ظالماً فليس له ثأر ولا ينبغي للإمام أن يقتل به أحداً . ولم يقم علي بالتحقيق في مقتل عثمان.

وكان ملف التحقيق بدأ باستجواب (محمد بن أبي بكر الصديق) واستبان أنه لم يقتل الخليفة ولكنه تسور الدار مع من تسورها عليه.. فقد كان له إذاً في مقتل عثمان يد في ذلك.. خاصة عندما شهد عليه الغافقي أنه هو الذي بدأ بقتل الخليفة.. ولم يحقق مع الغافقي [1]. لذلك لم يستقبل المسلمون خلافة علي بمثل ما استقبلوا به خلافة عثمان من رضى النفوس وابتهاج القلوب.. وإنما استقبلوا خلافتة في كثير من الوجوم والقلق والإشفاق واضطراب النفوس واختلاط الأمر.

وأقبل علي على الخلافة واستأنف سيرة عمر، فلم يوسع بالعطاء ولم يمنح الناس المنح المالية ولم ييسر لهم أمورهم.. ومع ذلك كان الخليفة الجديد متأثراً بأطروحات الثائرين إلى حد ما.. فلم يقم بالقبض على القتلة الفعليين مع علمه بهم.. وهو يعلم علم اليقين أن القبض على القتلة و التحقيق معهم هو جزء مهم وأساسي لتثبيت دعائم سلطته ومن مهام عمله

(١) انظر : المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر، مرجع سابق،ص٣٥٣ –ص٣٥٧ كذلك : الطبري ج٤ مرجع سابق،،ص٣٥٨ صـ ٣٦١ أيضاً : ابن الأثير : الكامل في التاريخ : بـيروت، دار الكتب العلمية،مج٣.،ط١، ١٩٨٧، ص٥٣ –ص٥٧ انظر أيضاً : ابن قتيبة الإمامة والسياسة، مرجع سابق، ج١، ص٤٠- ص٤٦ .

الجديد. لكنه بدأ عمله بالقضاء على نظام حكومة عثمان، وما نتج عنها من الآثار السيئة .

ولم يكن بمقدور علي الاحتفاظ بولاة عثمان لأنه كثيراً ما وجه إليه اللوم على توليتهم كما ساءه سيرتهم في الأمصار.. لذلك شرع بعد أخذه البيعة من أهل لمدينة في عزل هؤلاء الولاة وتولية غيرهم.. وكان قد نصحه المغيرة بن شعبة وعبدالله بن عباس بأن يقر عمال عثمان على أعمالهم حتى يستتب الأمر له، فلم يستمع إلى نصحهم ، وبعث عماله إلى الأمصار ليحلوا محل ولاة عثمان، فبعث إلى البصرة عثمان بن حنيف، وأرسل أخاه سهل بن حنيف إلى الشام وعبدالله بن عباس إلى اليمن وولى قيس بن سعد بن عبادة على مصر، وعمارة بن شهاب لولاية الكوفة، لكن أهلها ردوه، وأعلنوا أنهم لا يريدون بأميرهم أبي موسى الأشعري بديلاً.دخل قيس بن مسعد مصر دون عناء وأخذ البيعة من أهلها لعلي، أما عثمان بن حنيف فذهب إلى البصرة ولم يرده أحد وتوجه سهل بن حنيف إلى الشام، لكنه لم يكد يصل إلى تبوك حتى لقيته خيل معاوية، فلما سألوه عن مقصده أخبرهم أنه ولي إمارة الشام فقالوا له : إن كان عثمان بعثك فأهلاً بك، وإن كنت أميراً من قبل غيره فارجع إلى من أرسلك فعاد سهل إلى علي بالمدينة.

وعندما علم الخليفة الجديد رفض معاوية بالاعتراف بخلافته. دعا علي بن أبي طالب إلى اجتماع طارئ لأعلام قريش.. ومنهم طلحة والزبير ليشاورهم فيما يفعل، وقال لهم : إن الذي كنت أحذركم منه قد وقع، إنها فتنة كالنار كلما سعرت ازدادت واستنارت، وانه من الخير القضاء عليها في مهدها. ثم بدأ بتجهيز جيش لغزو الشام، ودفع اللواء إلى محمد

بن الحنفية واستخلف على المدينة قثم بن عباس، وكتب إلى كل من قيس بن سعد وعثمان بن حنيف، وأبي موسى الأشعري بأن يتهيؤوا للخروج إلى الشام، ودعا أهل المدينة ليكونوا على استعداد تام لمواجهة جيش معاوية رئيس قوى المعارضة والممتنع عن البيعة [1].

وقال لهم : (إن الله عز وجل بعث رسولاً هادياً مهدياً بكتاب ناطق وأمر قائم واضح لا يهلك عنه إلا هالك.. وإن في سلطان الله عصمة، أمركم فأعطوه طاعتكم غير ملوية ومستكره بكم ما أفسد أهل الآفاق وتقضون الذي عليكم) [2].

في الوقت ذاته وصلته أخبار من المدينة بأن جماعة منشقين من أصحابه، متوجهون نحو مكة .. ولحق بهم طلحة والزبير، بعد أن استأذنا علياً، وزعما أنهما يريدان العمرة، كما لحق بالمنشقين بعض من ولاهم عثمان وخلعهم علي مثل عبدالله بن عامر. ويعلي بن أمية، وآخرين كمروان ابن الحكم، وسعيد بن العاص، والوليد بن عقبه.. فضلاً عن ذلك كانت أم المؤمنين السيدة عائشة بنت أبي بكر وزوج الرسول تقيم بمكة. وعرف عنها كراهيتها لعلي بن أبي طالب.. وكانت من أشد نساء الرسول الكريم إنكاراً على عثمان، فلما بلغها انتخاب علي.. رأت أن الأمور سارت على غير ما تريد، فأعلنت أن عثمان قتل مظلوماً، وتحدثت إلى الناس من خلف الستر بقولها : (إن الغوغاء من أهل الأمصار وعبيد أهل المدينة، اجتمعوا على هذا الرجل المقتول ظلماً بالأمس ونقموا عليه استعمال من حدثت سنه، وقد استعمل أمثالهم قبله مواضع من الحمى

---

(١) انظر الطبري،ج٣ ص٤٦٥-ص ٤٦٦.

(٢) المرجع نفسه ص ٤٦٦.

حماها لهم، فلما لم يجدوا حجة ولا عذراً، بادروا بالعدوان فسفكوا الدماء الحرام، واستحلوا البلد الحرام، والشهر الحرام، وأخذوا المال الحرام [١]. سمعوا الناس لها وتأثروا، وكتب علي كتاب تولية خالد بن العاص بن المغيرة على مكة، " وقد وصل إلى مكة وهي أشد ما تكون من الثورة لما كانت تسمع من حديث عائشة. فكان ما كان من رفض البيعة وإلقاء الكتاب الذي كتبه على سقاية زمزم "[٢].

وبعد وصول طلحة والزبير وانضما إلى من كان من الغاضبين لعثمان المعارضين لعلي.. منذ ذلك الحين أصبحت مكة مثابة تجمع لقوى المعارضة لخلافة علي. تجمهر الغاضبون لعثمان، وبدأ الحديث عن الثأر لعثمان من الذين قتلوه.. ثم يعود أمر المسلمين شورى بينهم فيختار المسلمون من يريدون خليفة لهم، دون استكراه أو خوف من السيوف المسلطة على الأعناق، واتجه الناقمون لمقتل الخليفة عثمان نحو البصرة، لسببين الأول لكثرة المضرية فيها، والثاني لأن عبد الله بن عامر، زعم لهم أن له بين أهلها مودة وصنائع فيسمعوا له ويطيعونه [٣].

وكان طلحة والزبير يعلمان مدى تأثير أحاديث عائشة في الناس، فحرضاها على المسير بصحبتهم إلى البصرة. وقالا لها : إن أهل البصرة لو رأوك لكانوا جميعاً يداً واحدة معك، فأجابتهم إلى الخروج.. ولما أعدوا الرحيل أمدهم عبد الله بن عامر، ويعلي بن أمية، بكثير من المال ونادى المنادي أن أم المؤمنين وطلحة والزبير، ذاهبون إلى البصرة، فمن كان

---

(١) انظر : د/ طه حسين، إسلاميات، بيروت، دار العلم للملايين، ط ٤، ١٩٨٤، ص٨٥٥.
(٢) المرجع نفسه، ص٨٥٦.
(٣) المرجع نفسه، ص٨٨٦.

يريد إعزاز الإسلام وقتال المحلين والطلب بثأر عثمان، وليس له مركب وجهاز، فليأت فحملوا ستمائة رجل على ستمائة ناقة سوى من كان له مركب، ولحق بهم كثير من الناس وقد تزودوا جميعاً بالمال.وانشغل علي بخروج عائشة وطلحة والزبير[1] عليه وذهابهم إلى البصرة فعول على المسير في آثارهم، ولما تعثر عليه اللحاق بهم، أرسل إلى أبي موسى الأشعري – وكان عاملاً لعثمان على الكوفة – ليستنجد بأهلها، لكن أبا موسى، خذل الناس عن القيام بنصرته لكراهته أن يحارب المسلمون بعضهم بعضاً.. كما أبى الخروج مع أهل ولايته.. لذلك كتب إليه علي يعنفه ويعزله عن عمله ويقول له : (إني قد بعثت الحسن وعماراً يستنفران الناس، وبعثت قرظة بن كعب والياً على الكوفة، فاعتزل عملنا مذموماً مدحوراً، وإن لم تفعل فإني قد أمرته أن ينابذك، فإن نابذته فظفر بك يقطعك إرباً إرباً)..

وصل هذا الكتاب إلى أبي موسى. أعتزل عمله في ولاية الكوفة. ثم استجاب بعض من أهل الكوفة لعلي، وذهب معهم إلى البصرة وكان التجمع العسكري في البصرة مقسماً إلى ثلاثة أقسام.الأول يؤيد عائشة. الفريق الثاني يؤيد علياً، أما الفريق الثالث، فكان يرى أن يبقى على الحياد.. وكانوا سفراء بين الفريقين من أجل إجراء الصلح فقد أرسل علي لمعسكر عائشة، القعقاع بن عمرو ليدعوهم للصلح فأخبروه أنهم جاءوا

---

(١) يقول المؤرخ اليعقوبي.. تاريخ اليعقوبي ,ج٣ ص١٥٦ : إن الخليفة علياً كان قد ولى طلحة اليمن، والزبير اليمامة والبحرين، ثم ما لبث أن استرد عهد توليتهما، فعتبا عليه، وقالا آثرت، علينا، فقال : لولا ما ظهر من حرصكما فقد كان لي فيكما رأي. نقلاً عن : د/ جمال الدين سرور /، الحياة السياسية في الدول العربية، مرجع سابق، ص٧٢.

للإصلاح وأن وجه الإصلاح أن يقتل قتلة عثمان لأن قتلهم إحياء للقرآن، وتركهم ترك للقرآن، فاحتج القعقاع عليهم بحالهم الذي كان أقرب إلى الاستقامة قبل القتال، الذي كان وقع بينهم وبين بعض أهل البصرة، منه بعد القتال، ودلل عليهم بموقف الأعداد الكبيرة من أبناء القبائل التي حميت غضباً لقتلاها ونفرت لتمنع منهم المطلوبين لهم منها، وعند ما عاد القعقاع إلى علي أخبره بذلك فأعجبه ووافقه [1].

وكان جيش علي يضم الفريق الذي عارض عثمان، وهؤلاء قد اتفقوا فيما بينهم أن ينفخوا نار الحرب بأي طريقة، فهاجم بعضهم ذات يوم المعسكر البصري، فثار أهل البصرة، وظنوا أن علياً غدر بهم، فأدى ذلك إلى اشتباك الفريقين في حرب طاحنة في مكان يقال له الخربية [2] جمادي الأخر عام ٣٦هـ ..انتهت هذه المعركة بهزيمة عائشة وطلحة والزبير في واقعة الجمل، وعرفت بذلك نسبة إلى الجمل الذي كانت تركبه السيدة عائشة، وحواليها الناس تحرضهم على القتال، وقد انتهت هذه الواقعة بانتصار علي ودخوله البصرة، ومقتل طلحة والزبير، وعمل الخليفة علي – قبل أن يغادر البصرة – إعادة أم المؤمنين عائشة إلى المدينة، وأمر بتجهيزها بما تحتاج إليه في سفرها. وأرسل بصحبتها أربعين امرأة من نساء البصرة كما ذهب معها أخوها (محمد بن أبي بكر الصديق). وبعد أن حقق الخليفة انتصاره في معركة (الجمل)، أخذ لنفسه البيعة من سكان البصرة،وكان فيها : ((عليك عهد الله وميثاقه

---

(١) محمد ضيف الله البطاينة : قتلة عثمان بن عفان، بين علي بن أبي طالب ومعارضيه. ا لة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، العدد ١٣ مج٤ شتاء ١٩٨٤، ص٣٠.

(٢) الخربية : موضع بالبصرة، انظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٣، ص٤٢٦.

بالوفاء لتكونن لسلمنا سلماً ولحربنا حرباً ولتكفن عنا لسانك ويدك.))
وبعد فراغ الخليفة علي من البيعة، عمد إلى بيت المال، فقسم ما وجد فيه على أتباعه، لكنه لم يبح لهم أن يأخذوا ما ظفروا به بعد الهزيمة، فقال بعضهم، يحل لنا دماؤهم ويحرم علينا أموالهم. وتوجه نحو الكوفة، وأستقر بها وأصبحت عاصمة لخلافته. ومن هناك بعث جرير بن عبدالله إلى معاوية يدعوه إلى الطاعة والبيعة، والدخول فيما دخل فيه المهاجرون والأنصار.. لكن معاوية أخذ يماطله، ويشاور وجوه أهل الشام وقادة الجيش وأهل بيته فيما طلبه علي.. فأشار عليه عمرو بن العاص أن يلزم علياً دم عثمان، وكان معاوية نفسه يحرض أهل الشام على المطالبة بثأره. وامتنع عن بيعة علي بحجة أنه آوى قتلة عثمان , وأن بيعته ليست مشروعة وأنه ليس لعلي أن يعزله عن ولاية الشام التي ولاه عليها عثمان بن عفان، وفشلت السفارة بين طرفي النزاع، فرجع إلى علي وأنهى إليه إصرار معاوية على التمسك بموقفه من بيعته واجتماع أهل الشام معه على قتاله وأنهم يبكون على عثمان ويقولون إن علياً آوى قتلته، وأنهم لا ينتهون عنه حتى يقتلهم أو يقتلوه.

وهيمنت قريش على دائرة المعركة بين علي ومعاوية.. كان على رأس قريش معاوية، وكان العرب يشكلون الأغلبية العظمى في صفوف علي، إذ لم يكن يقاتل معه سوى عدد محدود جداً من القرشيين. كانت ربيعة على رأس القبائل المخلصة لعلي، وكان كثير الثناء عليها، وقد حاول أن يقيم بينها وبين القبائل اليمنية حلفاً يحيي به حلفاً كان بينهما قبل الإسلام، وأهم القبائل اليمنية التي كانت في صفوف علي هي (كندة، وبجيلة، وهمدان، وخثعم،والأزد) أما جيش معاوية فكان يتألف أساساً

من القبائل اليمنية التي سكنت شمال الجزيرة العربية خاصة الشام منذ أن هاجرت إلى هناك قبل الإسلام، ومن أبرزها قبيلة (كلب) و إلى جانب القبائل اليمنية تأتي قبائل قيس التي كانت تمثل العنصر المضري في الشام، وبالخصوص منها (ثقيف) التي كان منها كبار الولاة الأمويين على العراق مثل المغيرة بن شعبة، وزياد بن أبيه، والحجاج بن يوسف الثقفي.

عمل علي بن أبي طالب على إقامة جسر من التفاهم بين ربيعة والقبائل اليمنية ضد قريش، ومع ذلك لم يستطع إقرار التعايش والتعاون بين العنصر اليمني والعنصر المضري في صفوفه، فكان ذلك من أسباب هزيمته.

في معركة صفين التقى جيش علي وجيش القوى الانفصالية الرافضة لشرعية خلافة علي ودارت رحى المعركة، التي ذهب ضحيتها آلاف القتلى من الفريقين، وأوشك النصر أن يتحقق للقوات الشرعية.. لولا أن ظهرت دعوة التحكيم، وهي مؤامرة شارك فيها (معاوية بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص) مع بعض رجالات علي، وفي طليعتهم (الأشعث بن قيس) قائد جند اليمن. كان الأشعث بن قيس، عاملاً لعثمان على أذربيجان، إلا أن عثمان كان قد ترك له خراجها فلما ولي علي الخلافة، عزل الأشعث بن قيس من عمله برسالة شديد اللهجة قال له فيها : " إنما غرك من نفسك إملاء لله، فما زلت تأكل رزقه وتستمتع بنعمه وتذهب

طيباتك في أيام حياتك، فأقبل واحمل ما قبلك من الفيء ولا تجعل على نفسك سبيلاً" (١).

والرواة يذكرون أن دعوة الأشعث بن قيس إلى الكف عن قتال معاوية قد سبقت إعلان الدعوة إلى التحكيم على لسان معاوية وأتباعه فلقد ذهب صبيحة يوم تواصل قتاله مع الليل الذي سبقه النهار الذي قبله، ذهب إلى علي، فقال (يا أمير المؤمنين والله لقد لقيت الحرب في الجاهلية والإسلام، فما رأيت حرباً قط كحرب يومنا هذا وليلتنا هذه. اللهم إنك تعلم أني لا أقول هذا فزعاً من الموت، والله لقد اشتبكت الرماح بيننا

---

(١) د / طه حسين : الفتنة الكبرى، ج٢، دار المعارف المصرية ١٩٦٩ ص١٥. ويشير المسعودي، إلى تلك المعركة على النحو التالي :- كان سير علي من الكوفة إلى صفين لخمس خلون من شوال عام ٣٦٠هـ وقد توزع في مقدار ما كان معه من الجيش، فمكثر ومقلل، والمتفق عليه من قـول الجميع تسعون ألفاً. أما جيش معاوية الذي جاء به من الشام فالمتفق عليه من قول الجميع فمكثر خمسة وثمانون ألفاً فسبق علياً إلى صفين، وعسكر معاوية في موضع سهل فيح في موضع قريب من الفرات وبات علي وجيشه في البر عطاشا قد حيل بينه وبين الورود. فأرسل علي الأشتر على رأس قوة عسكرية تقدر بأربعة آلاف مقاتل، ثم سار علي وراء الأشتر بباقي الجيش، وهجـم الأشـعث على جيش معاوية فارتحل معاوية عن الموضع، وورد علي فـ ل في الموضع الذي كان فيه معاويـة، وسمح الخليفة علي لرجال معاوية من ورود الماء. ثم بعث علي إلى معاوية يدعوه إلى اتحاد الكلمـة، والدخول في جماعة المسلمين، وطالت المراسلة بينهما. فاتفقا على الموادعة إلى آخر المحرم من سـنة ٣٧هـ ولما كان في اليوم الآخر من المحرم قبل غروب الشمس بعث علي إلى أهل الشام : إني قـد أحتججت عليكم بكتاب الله، ودعوتكم إليه، وإني قد نبذت إليكم على سواء إن الله لا يهدي كيد الخائنين، فلم يردوا عليه جواباً إلا (السيف بيننا وبينك أو يهلك الأعجز منا) وبدأ القتال بمبـارزة فردية.. و من قوم علي برز عمار بن ياسر يصيح بأعلى صوته.. والذي نفسي بيده لنقاتلهم علـى تأويلة كما قاتلناهم على تـ يله، وسقط قتيلاً.. المسعودي (تحقيق : محمد محي الدين عبد ا يـد ، ج٢، بيروت، ط٥، ١٩٧٣م ، ص٣٨٤ – ص٣٩١ .

حتى لو أردنا أن نجري الخيل عليها لجرت، ولئن التقى المسلمون يومنا هذا، لا يبقى لأهل الشام والعراق بقية، وليركبن الروم على الشام وأهله، وفارس على العراق وأهله.

نجح الأشتر بن مالك بتحقيق انتصاراته على جند الشام، ولما شعر جند الشام أن الخطر يهددهم، فكر عمرو بن العاص في تدبير حيلة ينتهي بها القتال، وهي أن يشير على جنده برفع المصاحف على أسنة الرماح [1] وأن يقولوا هذا كتاب الله حكم بيننا وبينكم.

كان عمرو بن العاص على يقين من أن فكرة التحكيم ستكون غير مقبولة عند فريق من جيش علي مما ترتب عليه إثارة الخلاف بينهم وهو الهدف الذي تحقق فيما بعد.. فدعا جند الشام إلى رفع المصاحف وقالوا : (هذا حكم كتاب الله عز وجل بيننا وبينكم من لثغور الشام بعد أهله، ومن لثغور العراق بعد أهله [2] فلما شاهد علي هذه المصاحف، سارع كثير منهم يدعونه إلى قبول تحكيم كتاب الله فأبى علي وبّين لهم أن ذلك عمل سياسي وليس دينياً ورفع المصاحف ما هو إلا خديعة

(١) ابن قتيبة الدنيوري : الإمامة والسياسة ج١ القاهرة، مؤسسة الحلبي وشركاه ص١٠١ ص١٠٢ ويروي علي النحو التالي : قال : - ذكروا أن أهل العسكرين باتوا بشدة من الألم، ونادى علـي أصحابه، فأصبحوا على رايا م ومصافحتهم فلما رآهم معاوية وقد برزوا للقتال، قال لعمرو بـن العاص : يا عمرو، ألم تزعم أنك ما وقعت في أمر قط إلا خرجت منه ؟ قال : بلى،.قال : أفـلا تخرج مما ترى ؟ قال : والله لأدعو م إن شئت إلى أمر أفرق فيه جمعهم، ويـزداد جمعـك إليـك اجتماعا إن اعطوكه اختلفو وإن منعوكه اختلفوا. قال معاوية : وما ذلك ؟ قـال عمـرو: تـأمر بالمصاحف فترفع ثم تدعوهم إلى ما فيها، فوالله لئن قبله لتفترقن عنه جماعته، ولـئن رده ليكفرنـه أصحابه فدعا معاوية بالمصحف، ثم دعا رجلا من أصحابه يقال له ابن هند فنشرة بين الصـفين، ثم نادى : الله الله في دمائنا ودمائكم الباقية، بيننا وبينكم كتاب الله، فلما سمع الناس ذلك ثـاروا إلى علي فقالوا قد أعطاك معاوية الحق ودعاك إلى كتاب الله فاقبل منه ورفع صاحب معاوية المصحف وهو يقول : بيننا وبينكم هذا المصحف) .

(٢) الطبري : مرجع سابق ج٤، ٣٧ص .

ومكيدة لإثارة الفتنة بين جيشنا، لكن فريق القراء من جنده يلحون عليه في الإستجابة إلى قبول تحكيم كتاب الله، وقالوا له (أجب إلى كتاب الله عز وجل إذا دعيت إليه وإلا ندفعك برمتك إلى القوم. أو نفعل كما فعلنا بابن عفان)[1]. ورفضوا استمرار القتال، وأنذروا علياً بمفارقته إذا لم يطلب الأشتر ابن مالك النخعي، الكف عن الحرب، فبعث علي قائد جيشه الأشتر، وكان قد أوشك على تحقيق النصر، يطلب إليه وقف القتال، فلم ير بداً من الإذعان لطلبه خوفاً من الفتنة، وبذلك انتهت موقعة صفين وحل محلها التحكيم.

من أجل ذلك بعث علي بن أبي طالب (الأشعث بن قيس الكندي) إلى معاوية. يعرف ما يريد من رفع المصاحف، فأجابه معاوية بقوله : لنرجع نحن وأنتم إلى أمر الله عزّ وجل في كتابه، تبعثون منكم رجلا ترضونه، ونبعث منا رجلاً، ثم نأخذ عليهما أن يحكما بكتاب الله لا يعدوانه، فلما عاد الأشعث إلى علي وأخبره بجواب معاوية، رضى الكثير من أنصار علي، ونزل علي عند رأيهم بعد أن حاول عبثاً هو والأشتر بن مالك أن يبينا لهم أن دعوة التحكيم خدعة [2].

والملاحظ أن هذا التنازل – من قبل علي – منح شرعية، لمعاوية بأحقيته بالخلافة وأن خلافة علي بن أبي طالب منتهيه.. بعد قبوله التحكيم. وهكذا كان دهاء عمرو بن العاص محكماً، حيث منح صاحبه حق الخلافة بعد نهاية التحكيم.

---

(١) المرجع نفسه،ص٣٤ .

(٢) د / محمد جمال الدين سرور الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية، مرجع سـابق ص٧٧ –٧٨ .

وهكذا وقع اختيار أهل الشام على (عمرو بن العاص) ليكون حكماً من قبلهم أما أهل العراق، فلم يجمعوا رأيهم على من يمثلهم في التحكيم، ولم يمنحوا الخليفة (علي بن أبي طالب) حق الاختيار من يمثله، حيث ألح الأشعث بن قيس الكندي، ومن تبعه منهم في اختيار أبي موسى الأشعري، رغم عدم ثقة علي به منذ أن خذل الناس عنه في الكوفة ونهاهم عن الخروج معه، حتى اضطر إلى عزله عن عمله [1]، وكان علي يرى اختيار عبد الله بن عباس، فرفض أصحابه، وقالوا : لا نريد إلا رجلاً هو منك ومن معاوية سواء، ليس إلى واحد منكما بأدنى منه إلى الآخر.

وكذلك رفضوا اختيار " الأشتر بن مالك " لأنه كان يرى المضي في الحرب حتى النصر [2] وأصبح الخليفة مضطراً إلى النزول على رغبتهم في اختيار أحد الحكمين، وقال لهم :" اصنعوا ما أردتم، فبعثوا في طلبه، وكان قد اعتزل القتال وأقام بإحدى قرى الشام.

وقد قتل من أصحاب معاوية عبيد الله بن عمر بن الخطاب، قاتل الهرمزان، كما قتل الكثير من سابقي العهد بالإسلام، وقتل من أصحاب علي " عمار بن ياسر" هو ابن أول شهيد في الإسلام، وهو الذي

---

(١) الطبري، مرجع سابق ج٤، ص٣٦ ٠ ص٣٧ .

(٢) ويبدو أن، المناوئين للخليفة علي بن أبي طالب، داخل جيشه، كانوا يمثلون أشبه بطابور خامس لصالح معاوية.. ويشير : د/ طه حسين : في كتابه : إسلاميات : بيروت، دار العلم للملايين، ط٤، ١٩٨٤م، ص٨٥٨، إلا أن معاوية لو أنصف وأخلص نفسه للحق أن يبايع كما بايع الناس، ثم يأتي إلى علي مع غيره من أولياء عثمان فيطالبون بالإفادة ممن قتله، ولكن معاوية لم يكن يريد أن يثـأر لعثمان بمقدار ما كان يريد أن يصرف الأمر عن علي.. بدليل أنه لما استقام له الأمر بعد وفاة علي بن أبي طالب تناسى ثأر عثمان ولم يتتبع قتلته.."

قال له النبي صلى الله عليه وسلم : ويحك يا ابن سمّية، تقتلك الفئة الباغية." وكان خزيمة بن ثابت الأنصاري يتبع علياً في صفين ولكنه لا يقاتل، وإنما يتحرى أمر عمّار، فلما عرف أنه قتل قال : الآن استبانت الضلالة ثم قاتل حتى قتل[1]. وقام معاوية بتأويل الحديث وقال : أنحن قتلناه ؟ إنما قتله الذين جاءوا به.

كان عمار يحارب وهو شيخ قد نيف على التسعين، شاخ جسمه ولكن عقله وبصيرته ظلت بمأمن من الشيخوخة، فكان شاب الحديث المناظرة، وكان شاب الجهاد. كان يحارب يوماً تجاه عمرو بن العاص وهو يرتجز :

نحن ضربناكم على تنزيله ضرباً يزيل الهام عن مقيله

واليوم نضربكم على تأويله ويُذْهل الخليل عن خليله

أو يرجع الحق إلى سبيله

كان أصحاب علي يرون أن قتالهم لمعاوية هو عملية جهادية.. ويذكر أهل العراق مكان علي من النبي وقول النبي لأصحابه : ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم ؟ فلما قالوا له : بلى، أخذ بيد علي وقال : من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من ولاه وعاد من عاداه. ويذكرون كذلك قول الله عز وجل : (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين".

---

(١) و ٣ د/ طه حسين : الإسلاميات، مرجع سابق، ص٨٩٣، ص٨٩٤.

فقد كان قتالهم مع علي أشبه بقتالهم مع النبي نفسه جهاداً في سبيل الله.

وفي صفر من عام ٣٧هـ أجتمع الحكمان المفوضان من أهل الشام والعراق وكتبا اتفاقاً تضمن قبول الفريقين المتنازعين بتحكيم كتاب الله. وأن يحيي الحكمان ما أحياه القرآن ولا يتبعان الهوى ولا يداهنان، وتحديد مكان اجتماعهما، وتأمينهما على أنفسهما وأموالهما، وجاء فيه: " بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما تقاضى عليه عليٌّ بن أبي طالب ومعاوية ابن أبي سفيان، قاضى علي على أهل الكوفة ومن معهم من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين، وقاضى معاوية على أهل الشام ومن كان من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين، إنا ننزل عند حكم الله عز وجل وكتابه، ولا يجمع بيننا غيره، وإن كتاب الله عز وجل بيننا من فاتحته إلى خاتمته، نحيي ما أحيا ونميت ما أمات، فلما وجد الحكمان في كتاب الله عز وجل – وهما أبو موسى الأشعري عبد الله بن قيس، وعمرو بن العاص القرشي – عملا به ومالم يجداه في كتاب الله عز وجل، فالسنة العادلة الجامعة غير المفرقة"[1].

وإقراراً للواقع نلاحظ أن الاحتكام إلى كتاب الله، إنما تبلور عندما وجد الناس أنفسهم في وضعية مأساوية – الأخ يقاتل أخاه – خصوصاً وأن الاتصال بين المعسكرين كان قائماً صباح مساء، كل قبيلة تجتمع إلى أختها في الصف الآخر.. تجمع قتلاها وتنقل جرحاها.. إلخ.

(١) د/ محمد جمال الدين سرور : الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية، مرجع سابق، ص٧٩.

على أن اللجوء إلى التحكيم لتجنب الصدام تقليد عربي قديم.. ومهما يكن فإن من الثابت تاريخياً أن تياراً واسعاً في صفوف علي ابن أبي طالب، كان يرى تجنب الحرب قبل وقوعها، وبقي هناك من يرغب في إنهاء النزاع : إما بوازع ديني " المسلم يقتل أخاه المسلم " أو بدافع قبلي.. وبالمقابل كان هناك في صفوف علي دائماً جماعات أخرى تضغط على مواصلة القتال، تدفعها مصالح أخرى.

وأخذ الأشعث بن قيس يطوف على معسكر علي بكتاب التحكيم يفهم "الناس" أعني رجال القبائل أن " التحكيم" قضية اليمنيين، فكان رد فعل قبائل بكر من ربيعة وتميم من "مضر" وهو رفض التحكيم، وقام جماعة من بني تميم في وجه الأشعث، وقال له أحدهم : (تحكمون في أمر الله عز وجل برجال.. لا حكم إلا لله).. ثم شد بسيفه فضرب به الأشعث فأصاب دابته، فاندفعت تجري وهو عليها ولما شاهده قوم الأشعث ذلك قاموا لنجدته، وكادت الحرب تشتعل في صفوف علي بين بني تميم وأهل اليمن لولا أن تدخل كبراء بني تميم فاعتذروا للأشعث بن قيس وقومه"[1] .

اضطر الخليفة علي بن أبي طالب إلى وقف القتال وقبول التحكيم.. وتوجه إلى مدينة الكوفة واتخذها عاصمة لخلافته، وبعد وقعة صفين صارت مقالة عروة بن أدية تنتشر شيئاً فشيئاً بين أنصاره مما أدى إلى انقسامهم على أنفسهم، فأبى جماعة من القراء وغيرهم من أتباعه أن يدخلوا مع علي الكوفة، ونزلوا في إحدى قرى الكوفة، لاعتقادهم أنهم أخطؤوا بقبولهم فكرة التحكيم لأن التحكيم يتضمن شك كل فريق

(١) الطبري : جـ ٤، مرجع سابق، ص٣٩.

من المحاربين أيهما المحق، وجعلوا شبث بن ربعي التميمي قائداً لهم، وعبد الله بن الكواء اليشكري إمامهم في الصلاة، ونادى أحدهم أن البيعة لله عز وجل على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فخرج إليهم الخليفة علي، وقال لهم : ما أخرجكم علينا ؟ قالوا حكومتكم يوم صفين، فبين لهم أنه قبل التحكيم كارهاً، وعندما لم يجد مفراً منه طلب من الحكمين أن يحكما بما في كتاب الله، ثم دعاهم إلى دخول الكوفة، فدخلوا معه.. إلا أن الخلاف عاد من جديد عند بدء الاستعداد للتحكيم، فقد بعث معاوية رسولا من قبله إلى علي يحثه الوفاء بعهده خشية أن يحمله بعض أتباعه من أعراب بكر وتميم على العدول عن التحكيم، فأمر بإنفاذ أبي موسى الأشعري إلى مكان اجتماع الحكمين، فواصل المعترضون على التحكيم، من قبيلتي بكر وتميم مناهضة علي، فكان إذا وقف علي، على المنبر خطيباً قاطعوه بقولهم (لا حكم إلا لله) فيرد عليهم بقوله : كلمة حق أريد بها باطل، كما تلا بعضهم هذه الآية يعرض به (ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين)، فأجابه علي بآية أخرى (فاصبر إن وعد الله حق لا يستخفنك الذين لا يوقنون) ، ولما أكثروا مقاطعتهم له، قال لهم : لكم عندنا ثلاث، لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسمه، ولا نمنعكم نصيبكم من الفيء ما دامت إيديكم مع أيدينا ولا نقاتلكم حتى تقاتلونا[1].

ولم يلبث هؤلاء الخوارج أن لقي بعضهم بعضاً واجتمعوا في دار عبد الله بن وهب الراسي فخطب فيهم وزهدهم في الدنيا ووعظهم، ثم دعاهم

---

(١) ابن الأثير : ج٣، ص١٣٣ - ص١٣٤ .

إلى الخروج من الكوفة بقوله : أخرجوا بنا إخواننا من هذه القرية الظالم أهلها إلى بعض كور الجبال أو إلى بعض هذه المدائن منكرين لهذه البدع المضلة، فلبوا دعوته وبايعوه في شوال عام ٣٧هـ. وبذلك اعتزلوا علياً مرة أخرى، واتجهوا إلى النهروان حيث لحق بهم خوارج البصرة [1].

من جهة أخرى توجه أبو موسى الأشعري مع أربعمائة رجل، كما بعث معاوية عمرو بن العاص في أربعمائة رجل، والتقى الحكمان في منطقة تسمى (دومة الجندل) [2] في رمضان عام ٣٨هـ وبدآ يجتمعان من حين لآخر في المكان المتفق عليه، وقد تناولا في اجتماعاتهما المتعددة كل المسائل التي كانت مثار اختلاف المسلمين في ذلك الوقت، وأهم نقطة اتفقا عليها في بادئ الأمر أن عثمان قتل مظلوماً، وأن معاوية ولي دمه، ومن حقه أن يطالب بأخذ الثأر من قاتليه [3] واتفقا على خلع علي ومعاوية، وترك الأمر شورى بين المسلمين فيختارون لخلافتهم من يشاؤون.

وبدأ عمرو بن العاص يكثر من التبجيل والتقدير لأبي موسى الأشعري لسنه ومقامة وكان ذلك لغاية في نفسه، فحمد الله عزّ وجل وأثنى عليه، ثم قال : أيها الناس إنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة، فلم نر أصلح لأمرها ولا ألم لشعثها من أمر قد أجتمع رأيي ورأي عمرو عليه، وهو أن نخلع علياً ومعاوية، وتستقبل هذه الأمة، هذا الأمر فيولوا منهم من

---

(١) نفس المرجع ص ١٣٤.

(٢) منطقة دومة الجندل، تقع على الطريق الممتد من دمشق إلى المدينة .

(٣) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ج٤، ص٤٩- ص٥٠.

أحبوا عليهم، وإني قد خلعت عليًا ومعاوية، فاستقبلوا أمركم وولوا عليكم من رأيتموه لهذا الأمر أهلاً [1].

الملاحظ، أن أبا موسى الأشعري خلع معاوية ولم يكن له بيعة في الخلافة في رقاب المسلمين ولم يكن ولي الدم لعثمان شرعاً لأن الخليفة المقتول عثمان له أبناء، وهم أصحاب الدم، كذلك من الناحية الشرعية الخليفة علي هو ولي الدم بحكم بيعة المسلمين له. فلماذا أقر أبو موسى الأشعري على نفسه، ذلك العمل الخاطئ سياسياً ودينياً بينما علي هو الخليفة المبايع من المهاجرين والأنصار، والقبائل الممثلة لبلدانهم كاليمنيين والمضريين وغيرهم.

المهم في الأمر أن عمرو بن العاص صعد المنبر وحمد الله وأثنى عليه وقال: إن هذا قال ما سمعتم وخلع صاحبه، وأنا أخلع صاحبه كما خلعه وأثبت صاحبي معاوية فإنه ولي دم عثمان بن عفان والطالب بدمه وأحق الناس بمقامه. وبذلك نقض عمرو ما اتفق عليه مع أبي موسى الأشعري، كما لم يحافظ على العهد الذي أعطاه على نفسه في صحيفة التحكيم[2] مما أدى إلى تنابذهما، ثم انصرف كل فريق إلى ناحية، فلحق أبو موسى بمكة، وعاد وفد العراق إلى علي، كما رجع أهل الشام إلى معاوية حيث بايعوه بالخلافة [3].

---

(١) الطبري: نفس المرجع، ص ٥١-ص٥٢.

(٢) ينص كتاب التحكيم على اتفاق بين الحكمين نيابة عن علي ومعاوية، على الاحتكام لكتاب الله وسنة رسوله وإيقاف القتال، وضربا أجلاً للقاء، وإصدار الحكم في شهر رمضان عام ٣٧هـ ـ وكانا قد اجتمعا في شهر صفر من نفس العام .

(٣) د / جمال الدين سرور مرجع سابق ص٢٨.

وانتصر بهذا الحكم الذي أصدره الحكمان (جماعة معاوية) بمقتضاه خلع الخليفة الشرعي علي بن أبي طالب من الخلافة .. أما معاوية فلم يصبه شيء لأنه كان والياً على الشام من قبل عثمان ولم يطلب البيعة لنفسه، ولم يبايعه أحد بأمرة المؤمنين، فإذا عزل فإنما يعزل عن ولاية الشام.. وقد نوه معاوية إلى ذلك بقوله " وقد حاكمناهم إلى الله فحكم لنا عليهم ثم جمع كلمتنا وأصلح ذات بيننا وجعلهم أعداء متفرقين يشهد بعضهم على بعض بالكفر ويسفك بعضهم دم بعض ".

وعاد جيش علي بعد التحكيم إلى الكوفة في فوضى وتمزق (خرجوا مع علي إلى صفين متوادين أحباء فرجعوا متباغضين أعداء، ما برحوا من عسكرهم بصفين حتى فشا فيهم التحكيم وقد أقبلوا يتدافعون الطريق كله ويتشاتمون ويضطربون بالسياط.. ويقول الخوارج يا أعداء الله أوهنتم في أمر الله عز وجل وحكمتم، وقال الآخرون – الذين فرضوا التحكيم – فارقتم إمامنا وفرقتم جماعتنا، فلما دخل "علي" الكوفة لم يدخلوا معه حتى أتوا حرورا [1] فنزل بها منهم اثنا عشر ألفاً ونادى مناديهم (إن أمير القتال شبث بن ربعي التميمي، وأمير الصلاة عبد الله بن الكواء اليشكري، والأمر شورى بعد الفتح، والبيعة لله عز وجل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) [2].

---

(١) قرية من قرى الكوفة .

(٢) الطبري مرجع سابق : انظر المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر، مرجع سابق ، ج٢، ص٤٠٥: ويضيف المسعودي أن علياً خرج إليهم وعمل على إقناعهم بدخول الكوفة فدخلوا جميعاً.

ولذلك نلاحظ أن الأول من بني تميم والأخير من بني بكر أقوى قبائل ربيعة. ولذلك قال عنهم علي بن أبي طالب، إنهم (أعاريب بكر وتميم). وإذا أضيف إليهم نافع بن الأزرق وأنصاره، الذين حملوا فرقة (الأزارقة) وكانت من أقوى فرق الخوارج، فإنه يمكن القول بصفة عامة إن قبائل شرق الجزيرة العربية قد أنفصلت عن علي بن أبي طالب، ولم يبق معه إلا أهل الكوفة، ومعظمهم من القبائل اليمنية[١].

والملاحظ أن ضحايا الحرب كانت فادحة إن لم تكن مأساوية، فقد قتل من أصحاب الإمام علي (جماعة كثيرة من صلحاء الناس وقرائهم).. ولم يكن من قتل من أصحاب معاوية أقل خطراً في أهل الشام ممن قتل من أصحاب علي في أهل العراق.. كان كثير من أولئك وهؤلاء يرون القتال ديناً ويتقربون به إلى الله يذكرون أهل العراق مكانة علي من النبي، وقول النبي لأصحابه الست أولى بالمؤمنين من أنفسهم ؟ قالوا بلى. فأخذ بيد علي وقال : من كنت مولاة فعلي مولاة اللهم وال من والاه وعاد من عاداه.. [٢] فحين كانوا يقاتلون مع علي كأنهم يقاتلون مع النبي نفسه جهاداً في سبيل الله.. وكان أصحاب معاوية يرون أن بيعة عثمان في أعناقهم و أن الذين قتلوه، قد أحدثوا في الإسلام حدثاً خطيراً واستحلوا من دمه ما حرم الله واستحلوا من الإمامة ما لا يحل للمسلمين أن يفرطوا فيه، فضلاً عن أن ينتهكوا حرمته " [٣].

---

(١) د / محمد عابد الجابري : العقل السياسي العربي، مرجع سابق، ص١٦٣.

(٢) / طه حسين : مرجع سابق ص٨٩٥.

(٣) نفس المرجع، ص٨٩٥.

وأظهر الخوارج العداء لعلي ودارت معارك بينه وبينهم. وبعد أن اطمأن إلى أنه قد قضى عليهم دعا أنصاره لغزو الشام من جديد، فلم يجد منهم أذنا مصغية، فأعاد القول عليهم ووعظهم وحثهم على الجهاد، فقالوا : (يا أمير المؤمنين كلت سيوفنا وفنيت نبالنا ونصلت أسنة رماحنا، فأعدنا على مصرنا لنستعد بأحسن عدتنا [(١)].

في الوقت ذاته كان الخليفة علي بن أبي طالب قد عاد إلى قاعدته العسكرية في النخيلة (خارج لكوفة) وأمر قادته أن يلزموا المعسكر ويوطنوا نفوسهم على الجهاد، ونهاهم عن عودتهم، إلى أهاليهم حتى يعودوا من الشام، فأقاموا هناك أياماً ثم صاروا يتسللون ويدخلون الكوفة حتى خلا المعسكر منهم، ولم يستطع أقناعهم ولا إقناع رؤسائهم، وآثروا الإقامة بالكوفة وتخاذلوا عن نصرته مع قدراتهم القتالية والعددية.. وبلغ معاوية ذلك فبدأ يغزو المناطق التي تدين بالولاء لعلي، فأرسل جيشاً إلى مصر وأسند قيادته إلى عمرو بن العاص، فقدمها عام ٣٨ هـ. وكان اهتمام معاوية بالإستيلاء على مصر لكثرة خراجها.. وتمكن هذا الجيش من هزيمة واليها محمد بن أبي بكر وجنده، وبذلك دخلت مصر في حوزة معاوية، وانتهى سلطان علي منها [(٢)].

وعمد معاوية، أيضاً إلى غزو أطراف العراق، فأرسل النعمان بن بشير إلى عين التمر عام ٣٩هـ ووجه سفيان بن عوف للإغارة على هيت والأنبار،

---

(١) الطبري : ج٤ مرجع سابق،ص٧٧.

(٢) د / جمال الدين سرور : مرجع سابق، ص٨٧.

كما سار معاوية بنفسه حتى مشارف دجلة، ثم عاد إلى الشام [1] وهذا يدل على ضعف سلطة علي وقوة سلطان معاوية.

وفي عام ٤٠هـ أرسل معاوية بسر بن أبي أرطاة إلى الحجاز فاستولى على المدينة، ولجأ أبو أيوب الأنصاري إلى علي بالكوفة.. ثم زحف بسر إلى مكة وأكره أهلها على البيعة لمعاوية، ثم توجه منها إلى اليمن، وكان بها عبدالله بن عباس، عامل علي، فانصرف عنها هو وأعوانه إلى الكوفة، وبذلك أتيحت الفرصة لبسر ليقضي على أنصار علي، ثم عاد إلى الشام[2]. بعد أن ارتكب كثيراً من المجازر البشعة في اليمن.

ووجد الخليفة علي بن أبي طالب نفسه مضطراً لإستنهاض أتباعه من جديد وأشار إليهم بأنهم هم الذين فرضوا عليه البيعة، وقال لهم : (أما ترون إلى أطرافكم قد انتقصت والى مصركم قد افتتح فما لكم تؤفكون، إلا أن القوم قد اجتمعوا وجدوا وتناصحوا إنكم تفرقتم واختلفتم وتغاششتم تسعدون فأيقظوا رحمكم الله نائمكم وتحرروا لحرب عدوكم) [3].

فبايعه أربعون ألفاً من أهل العراق على الموت، وزاد حماسهم للخلاص من معاوية حين بلغهم ذهابه إلى بيت المقدس وأخذه البيعة عام ٤٠ هـ.

---

(١) الطبري : ج٤ المرجع السابق، ص١٠٢ - ص١٠٣.

(٢) د/ جمال الدين سرور : مرجع سابق، ص ٨٨.

(٣) ابن الأثير، ج ٣، ص ١٦١.

وبينما كان علي يستعد للمسير بهذا الجيش فقد تعرض لمؤامرة اغتيال، إذ تلقى طعنة قاتلة من أحد الخوارج [1].

وبويع الحسن بن علي للخلافة.. وكان الحسن لا يريد قتالاً ولكنه يريد أن يأخذ لنفسه ما استطاع من معاوية، ثم يدخل في الجماعة.. وعرف الحسن أن قيس بن مسعد لا يوافق على رآيه، فنـزعه وأمَّر عبيد الله بن عباس، فلما علم ابن عباس بالذي يريد الحسن عليه السلام أن يأخذ لنفسه، كتب إلى معاوية يسأله الأمان، ويشترط لنفسه على الأموال التي أصابها، فشرط ذلك له معاوية [2].

وبينما الحسن وجيشه بالمدائن سمع قدوم معاوية إليه في جيشه.. وأطلق معاوية إشاعة وسط جيش الحسن، تقول : " إن قيس بن سعد، قد قتل فانفروا، حتى استجاب الناس بسهولة : فنفروا ونهبوا سرادق الحسن عليه

---

(٤) يشير ابن قتيبة : في كتابه الإمامة والسياسة، ج١ ص ١٣٧ – ص ١٣٨ : إلى أنه بينما كان نفر من الخوارج يشهدون موسم الحج عام ٣٩هـ رؤا إختلاف أنصار على ومعاوية كل يأبى أن يصلي بصلاة خصمه، فاختار الناس رجلاً ليس له صلة بأحد الفريقين ليقيم لهم صلاتهم،فلما انقضى الموسم أقام هؤلاء النفر مجاورين بمكة، وتحدثوا في ضرورة إراحة الأمة الاسلامية من هذا الإختلاف، فقال عبد الرحمن بن ملجم المرادي : أنا أكفيكم علياً، وقال الحجاج بن عبد الله الصيرمي : أنا أكفيكم معاوية، وقال عمرو بن بكر التميمي السعدي : أنا أكفيكم عمرو بن العاص، ومضى كل منهم إلى الجهة التي سينفذ فيها مؤامرته، فلم يصب المتأمر على معاوية منه مقتلاً، أما عمرو بن العاص فلم يخرج للصلاة في اليوم المحدد لاغتياله وصلى بالناس صاحب شرطته فضر به الخارجي وهو يظن أنه ابن العاص.. وأقام عبد الرحمن بن ملجم المرادي بالكوفة يرقب خروج علي فلما خرج للصلاة وثب عليه، وقال له الحكم لله ياعلي لالك وضربه بسيفه وبذلك قتل علي.. وتوفي في ١٧ رمضان عام ٤٠هـ، وبايع الناس الحسن بن علي بالخلافة بعد مقتل أبيه في عام ٤٠هـ ودعا لبيعته قيس بن سعد بن عبادة، وقال له أبسط يدك أبايعك على كتاب الله وسنة نبيه، فقال له الحسن:على كتاب الله وسنة نبيه فإ نما ياتيان على شرط وكان الحسن يرى ألا يبايع على الحرب ليكون مخيراً فيما يرى من الحرب أو السلم، فبايعه قيس وتبعه سائر الناس، ولما تمت له البيعة اشترط عليهم أن يسمعوا ويطيعوا ويحاربوا من حارب ويسالموا من سالم، فارتاب أهل العراق من أمره حين سمعوا هذا الشرط وظنوا أنه يريد الصلح.

(٢) د/ محمد الجابري، مرجع سابق، ص١٦٣.

السلام، حتى نازعوه بساطاً كان تحته.. فلما رأى الحسن عليه السلام، تفرق الأمر عنه، فبعث إلى معاوية يطلب الصلح، فبعث معاوية مندوبين عنه، وصالحا الحسن على أن يأخذ من بيت مال الكوفة خمسة آلاف في أشياء اشترطها (١)... منها أن يكون الأمر له أي للحسن (٢). أو يكون الأمر شورى بين المسلمين. ثم قام الحسن في أهل العراق خطيباً فقال: يا أهل العراق إنه سخى بنفسي عنكم ثلاث : قتلكم أبي، وطعنكم إياي – وكان قد جرح بعد أن نهب سرادقه – وانتهابكم متاعي.. وهكذا دخل الناس في طاعة معاوية... ودخل معاوية الكوفة، فبايعه الناس وصار خليفة بالإجماع، فسمي ذلك العام عام الجماعة. (٤١هـ)..وقامت دولة جديدة، دولة الملك السياسي.

وبدأ المحيطون بمعاوية يوظفون أحاديث نبوية، حيث رويت أحاديث على إعفاء بني أمية من العقاب يوم القيامة، وترفع خلفاء بني أمية إلى مقام الأنبياء.. من ذلك تقول الرواية : أتى جبريل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال : يا محمد إقرئ معاوية السلام، واستوصِ به خيراً فإنه أمين الله على كتابه ووصيه ونعم الأمين.. " وفي حديث آخر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: الأمناء ثلاثة جبريل وأنا ومعاوية.

كما روجوا حديثاً يقول فيه النبي صلى الله عليه وسلم : اللهم علم معاوية الكتاب ومكن له في البلاد وقه العذاب (٣) .

---

(١) نفس المرجع، ص١٦٤.
(٢) :ابن قتيبة : الإمامة والسياسة، مرجع سابق، ص١٦٣.
(٣) أبو الفداءالحافظ بن كثير : البداية والنهاية، ١٤جـ في جـ٧، بيروت، دار الكتـب العلميـة، (د.ت)،ص١٢٢- ص١٢٩.

وفي حديث آخر عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، يطلع عليكم من هذا الباب رجل من أهل الجنة، فطلع معاوية، قال من الغد مثل ذلك فطلع معاوية، فقال رجل يا رسول الله هو هذا ؟ قال: نعم.. وعن ابن عمر أيضاً قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا معاوية أنت مني وأنا منك لتزاحمني على باب الجنة كهاتين" وأشار بإصبعيه السبابة والتي تليها "[1].

هذا من جهة ومن جهة أخرى روجوا أحاديث تعفي الخلفاء من العقاب يوم القيامة، من ذلك حديث يقول : إن الله تعالى إذا استرعى عبداً رعية كتب له الحسنات ولم يكتب له السيئات.. وحديث آخر يقول : "إن من قام بالخلافة ثلاثة أيام لم يدخل النار".

وتأسيساً على مثل هذه الأحاديث قال معاوية يوماً : قد أكرم الله الخلفاء أفضل الكرامة، أنقذهم من النار وأوجب لهم الجنة وجعل أنصارهم أهل الشام (وخطب هشام بن عبد الملك حين ولي الخلافة فقال: "الحمد لله الذي أنقذني من النار بهذا المقام".

واستعمل الأمويون الفقهاء لتكريس وتوثيق مثل هذه الدعاوي، من ذلك أن يزيد بن عبد الملك أحضر "أربعين شيخاً شهدوا له ما على الخلفاء حساب ولا عذاب"[2].

---

(١) محمد بن الحسين أبو يعلى الحنبلي : المعتمد في أصول الدين، بيروت، المكتبة الشرقية، ١٩٨٦، ص٢٣٥.

(٢) جميع هذه الأحاديث وكثير غيرها أوردها ابن عساكر والبلاذري، أنظـر: د/ محمـد عابـد الجابري : مرجع سابق، ص٣٠٣.

بالمقابل توجد أحاديث تقول العكس وتنتسب إلى نفس الرواة الذين ذكروا لمعاوية ذلك الشأن، منها : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا رأيتم معاوية على منبري فاقتلوه". وفي لفظ آخر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا رأيتم معاوية يطلب الإمارة فاضربوه بالسيف". وفي حديث آخر عن عبد الله بن عمر قال: "كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يطلع عليكم من هذا الفج رجل من أمتي يبعث يوم القيامة على غير ملتي، فطلع معاوية فقال :هو هذا ".

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إذا بلغ بنو أبي العاص ثلاثين رجلاً اتخذوا مال الله دولاً وعباده خولاً ودين الله دغلاً. وفي حديث آخر: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رفع رأسه من الركعة الثالثة من المغرب قال : اللهم العن معاوية بن أبي سفيان والعن عمرو بن العاص. وعن أبي ذر قال: قال رسول الله أول من يبدل سنتي رجل من بني أمية [1].

لا يحتاج القارئ إلى التشكيك في هذه الأحاديث، فهي تكذب نفسها بنفسها وكأن رواة الأحاديث هذه أرادوا بها حرباً سياسية. منطلقين من مبدأ الغاية تبرر الوسيلة وكان مقابل هؤلاء المتصارعين، جماعة من الخوارج وهم أهل التكفير. وقد مارسوا أنواعاً من الإرهاب الديني ولم يكن الخوارج أهل فكر ونظر بل كانوا أصحاب (ثورة دائمة) على الحكم الأموي.. وعلى الرغم من أن الثورة مهما كانت فهي تحتاج دوماً إلى غطاء نظري.. لقد ثار الخوارج على علي بن أبي طالب،

---

(١) أبو يعلي الحنبلي :ص٢٣٦ – ص٢٣٧، نقلا عن د / محمد عابد الجابري، مرجع سابق،ص٣٠٣

عندما قبل (التحكيم) مدعين أن الحكم لله وحده، وأن علياً وجنده قاتلوا على الحق، وبالتالي لا يجوز الشك في قضيتهم ولا تحكيم الرجال فيها لقد اعتبروا التحكيم كفراً فأعلنوا واشترطوا على علي بن أبي طالب أن يعترف بالكفر بسبب قبوله التحكيم ويعلن توبته، لكي يعودوا إلى القتال معه. فرفض علي ذلك، وبما أن الكفر نقيض الإيمان، فيجب تحديد معنى الإيمان كذلك. وكانت محل نقاش. لقد اعتبر الخوارج حركتهم خروجاً عن (القرية الظالم أهلها) وبالتالي فكل من بقي في صفوف علي وصفوف معاوية ولم يخرج فهو عندهم "كافر"..

الفصل السادس

الفلسفة السياسية لدولة معاوية

الفصل السادس

الفلسفة السياسية لدولة معاوية

انتهينا من موضوع الصراع بين علي ومعاوية وإخلاء الساحة لمعاوية بن أبي سفيان، ومنح معاوية بن أبي سفيان شرعية الحكم، ويعد في نظر المفكرين الإسلاميين المحدثين بأنه المؤسس الأول لدولة الملك في الإسلام. والمؤرخون والفقهاء السنيون يشيرون إلى شخص معاوية بارتياح، لأنه وضع حداً نهائياً للحرب الأهلية، بل ويرون أنه كان أفضل من علي، حيث استطاع إنقاذ دولة الإسلام من الانهيار التام، وجدد شبابها باستئنافه الفتوحات. وإذا كان معظم المؤلفين السنيين يعطفون على علي بن أبي طالب، لأنه ابن عم الرسول صلى اللّٰه عليه وسلم وزوج ابنته، بل وأيضاً استقامة سلوكه، إلا أن بعض المفكرين[1] يبدون امتعاضاً من تردد الخليفة علي الذي طبع سلوكه السياسي، خصوصاً زمن الفتنة، وحين التحكيم، وهذا ما أشار إليه " الحسن البصري " عميد أهل السنة والجماعة عن علي بن أبي طالب وقبوله التحكيم، قال : (لم يزل أمير المؤمنين علي رحمه اللّٰه يتعرف النصر ويساعده الظفر حتى حكم. فلم تحكم والحق معك ؟ ألا تمضي قدماً، لا أبا لك وأنت على الحق[2].

---

(١) د/ محمد عابد الجابري : العقل السياسي العربي، مرجع سابق، صـ ٢٢٣.

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية، ج٧، صـ ٢٠٦. نقلاً عن الجابري : المرجع السابق، صـ ٢٣٣.

وتعامل أهل السنة مع النتيجة التي أسفر عنها الصراع بين معاوية وعلي، بأن معاوية استطاع أن يلم شمل المسلمين، وأن يبني دولة قوية، إلى جانب ما كان يتمتع به من خصال سلوكية كالحلم والوقار والكرم.

برز معاوية كسياسي محنك، ففي عهده مورست السياسة كسياسة، وضمن المحددات الثلاثة (القبيلة – الغنيمة – العقيدة)، لقد كانت دولة الخلفاء الراشدين دولة فتوحات عسكرية الطابع : أمراؤها قواد الجيش، وعلى رأسهم أمير المؤمنين، هو بمثابة القائد العام ورئيس الأركان من جهة، وقبائل مجندة جميعها تقريباً، من جهة أخرى.

(وبما أن هذه الفتوحات كانت جهاداً من أجل نشر الدين الجديد فلقد كان الأمراء القادة العسكريون رجال دين في نفس الوقت، فلم يكن الفتح لذاته بل من أجل الدين ونشره [1]، وكان الجند هم الرعية، لأن الجندي لم يكن يقاتل بوصفه فرداً من فرقة عسكرية تنتمي إلى جيش يتميز بلباسه ونظام حياته عن المدنيين، وكان الجندي فرداً في قبيلة مجندة ككل [2].

وفي مثل هذا المجتمع تمارس السلطة من أجل الدين وباسمه، منه يستمدون الشرعية وفيه يلتمسون الحكم والتوجيه، فكان الدين يؤسس السياسة ويحكمها وكانت السياسة تطبيقاً للدين وخادمة له، لقد كان الدين والسياسية يمارسان معاً في القبيلة بواسطتها ومن أجلها. وهذا الاندماج بين الأمراء والعلماء (بين الدين والسياسة) في القمة وبين الرعية

---

(١) الجابرى: المرجع السابق،ص٢٣٤.

(٢) نفس المرجع: ص ٢٣٥.

والجند في القاعدة، ففي القمة كلمة الدين وفي القاعدة، الكلمة للقبيلة وحدها [1].

هذا التحليل الذي جاء به المفكر المغربي / محمد عابد الجابري يعطي صورة مغايرة لمفهوم الجهاد بين الفاتحين وتحولت القضية إلى عمل توسعي استعمل الدين غطاء لذلك، والغنيمة هي الوسيلة لجمع القبائل حول قادتهم.. إلا أن ذلك التفسير بالفعل بعطي غطاءً تحليلياً لنتائج الصراع بين على و معاوية. حيث كان كل من المتصارعين يحاول أن يقنع أتباعه على أحقيته بالدفاع عن ما يراه صالحاً للناس وما ينفع الناس.

لقد كان انتصار معاوية على علي يمثل حسب تعبير معاوية، انتصاراً لأهل الجزاء والغناء في الأعمال والوظائف، على أهل الاجتهاد، والجهل بها.. ويرى الجابري أن ذلك يعد انتصار القبيلة على العقيدة [2]. لقد حكم معاوية باسم القبيلة وليس باسم العقيدة، فانفصل في شخصه (الأمير عن العالم) وامتد ذلك إلى أجهزة الدولة فصار الأمراء فريقاً والعلماء فريقاً أخر، هذا في القمة أما القاعدة التي كانت تؤطرها (القبيلة) فقد انقسمت زمن الفتنة إلى معسكر ين.. معسكر قريش ومعسكر (العرب) من (اليمن وربيعه) وعلى رأسه علي وبينهما أفراد وجماعات قررت اعتزال الفتنة، وبانتصار معاوية صارت القبائل التي قاتلت معه أو انضمت إليه هي وحدها (الجند) أما المجموعات التي قاتلت ضده، فقد اصبحت هي والتي

---

(٣) نفس المرجع : ص ٢٣٥.

(٤) د/ محمد الجابري.ص ٢٣٥.

كانت مترددة أو معتزلة - القتال-أصبحت رعية[1] . وبالتالي انقسمت القاعدة بدورها إلى جند ورعية.

بدأ معاوية في وضع خطوط عريضة لمنهجه السياسي المستقبلي لدولتة، تمثل ذلك في الخطاب الذي ألقاه (معاوية) على جماهير العلماء، وأنصار الرسول المهاجرين وآخرين، عند مقدمة إلى المدينة المنورة قال: "أما بعد فإني والله ما وليتها بمحبة علمتها منكم ولاسرة بولايتي، ولكني جالدتكم بسيفي هذا مجالدة، ولقد رضت لكم نفسي على عمل ابن أبي قحافة – أبي بكر – وأردتها على عمر فنفرت من ذلك نفاراً شديداً، وأردتها مثل ثنيات عثمان فأبت علي، فسلكت بها طريقاً ولكم فيه منفعة، مواكلة حسنة ومشاربة جميلة، فإن لم تجدوني خيركم فإني خير لكم ولاية، والله لا أحمل السيف على من لا سيف له، وإن لم يكن منكم ما يستشفى به، القائل بلسانه فقد جعلت ذلك له دبر أذني وتحت قدمي وإن لم تجدوني أقوم بحقكم كله فاقبلوا مني بعضه فإن أتاكم مني خير فاقبلوه فإن السيل إذا زاد أعنى وإذا قل أغنى، وإياكم والفتنة فإنها تفسد المعيشة وتكدر النعمة – ثم نزل [2]".

نلاحظ أنه اقترح عقداً آخر جديدا وعقداً ساسياً، يقوم على المنفعة، على (المواكلة الحسنة والمشاربة الجميلة) أي على "المشاركة" ولكن لا في السلطة بل في ثمراتها : الغنيمة، ويلزم معاوية في هذا.."العقد السياسي" بأن تكون ممارسته للسلطة قائمة - على نوع من "الليبرالية"، - إنه يسمح

(١)٢- نفس المرجع : ص ٢٣٥.

(٢) أحمد بن عبد ربه : العقد الفريد، تحقيق محمد سعيد العريان، ٨جـ ،جـ ٤، القاهرة، المكتبـة التجارية الكبرى، ص١٤٧.

بحريــة الكلمــة ولا يضــيره في شــيء أن يــتكلم الحاقــدون عليــه، أو المعارضون لسياسته. بما قد ينفس عليهم بحيث لن يلتفت لمن ينقده بل يترفع عن الرد عليه، وبالتالي فهو يلتزم بأنه لا يحمل سيفاً على من لا سيف له.

واتخذ مبدأً : قولوا ما شئتم ولن أتدخل إلا حينما أرى أن كلامكم يتحول إلى عمل.. وقد عبر معاوية عن ذلك عندما أغلظ له رجل فحلم عنه: فقيل له أتحلم عن هذا ؟ قال : إني لا أحول بين الناس وبين ألسنتهم مالم يحولوا بيننا وبين سلطاننا[1].

ولذلك كان يستقبل خصومه السياسيين من علويين وغيرهم ويستمع إلى نقدهم الذي كان يكتسي أحياناً طابع الهجوم المقصود. ومع ذلك كان يصرفهم بهدوء ويجزل لهم العطاء.

قال معاوية يصف نفسه، إني لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني ولو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت أبداً. فقيل له : وكيف ذلك ؟ قال : كنت إذا مدوها أرخيتها، وإذا أرخوها مددتها [2]. والمرويات عن معاوية كثيرة تشير إلى حرية التعبير والتفكير، وثار نقاش وجدل حول السلطة والعقيدة والرابط بينهما مما اضطر الخلفاء الأمويين إلى الدفاع عن أنفسهم، وجعلهم يقولون إن السلطة انتزعوها بإرادة الله وسابق علمه، أي بقضائه وقدره، ناشرين بذلك أيديولوجيا جبرية (عقيدة) اتخذوا منها غطاء لسلوكهم.. على أن

---

(١) الجابري : مرجع سابق، ص٢٣٧.

(٢) أحمد محمد عبد ربه الأندلسي : العقد الفريد، جـ ١، بيروت، دار الكتاب العـربي، طـ ـ ٣، ١٩٦٥، ص٢٥.

العقد السياسي الذي أقترحه معاوية على الأقل في مجال (المواكلة) والاشتراك في (الغنيمة) العطاء السياسي- والتعامل مع الخصوم الناشطين نشاط المعارضة السلمية.بهذا النوع من (الليبرالية) قد فتح الباب أمام قيام مجال سياسي تمارس فيه الحرب ضد الأمير بواسطة الكلام أي السجال العقائدي، فإنه لا معاوية ولا من أتى من بعده من الحكام استغنوا عن "القبيلة".

لقد انطلق معاوية من منهج جديد، كما سبق عندما تحدث لأهل المدينة بقوله :(إني والله ما وليتها بمحبة منكم ولكن جالدتكم بسيفي هذا مجالدةً).. وهذا الاتجاه السياسي القائم على (المجالدة) هو أسلوب الحكم، أما الجانب الشرعي له فهو قائم على المواكلة والمشاربة، ويقال إن (محمد بن جبربن مطعم) يحدث أنه بلغ معاوية، وهو عنده في وفد من قريش، أن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : إنه سيكون ملك من قحطان، فغضب معاوية، فقام وأثنى على الله بما هو أهله ثم قال : أما بعد فإنه بلغني أن رجالاً منكم يتحدثون أحاديث ليست في كتاب الله ولا تؤثر عن رسول الله، فأولئك جهالكم فإياكم والأماني التي تضل أهلها فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :" إن هذا الأمر في قريش لا يعاديهم أحد إلا كبه الله على وجهه، ما أقاموا الدين"[(١)]. لذلك تكونت لدى معاوية ثلاث ثوابت بنى عليها دولته، وهي التي ستكون هي نفسها التي اعتمد عليها الخلفاء الأمويون والعباسيون من بعد، (المجالدة – المواكلة –الشرعية القرشية)، وتمثلت المجالدة بالعطاء – توزيع الأرزاق "الفيء"- والامتيازات بين القبائل اليمنية والقيسية، وإثارة النعرات..

---

(١) البخاري : صحيح البخاري / جـ ٥، ص١٣.

وبالتالي تضرب القبائل بعضها ضد بعض، أما المواكلة الحسنة والمشاربة الجميلة والتي تقوم على العطاء السياسي وإسكات الخصوم وشل نشاطهم المعارض.

من ذلك أن عقيل بن أبي طالب قدم على أخيه الخليفة علي بن أبي طالب بالكوفة، فطلب منه أن يقضي عليه دينه وكان مقداره أربعين ألفاً، فأجابه علي : ما هي عندي، ولكن أصبر حتى يخرج عطائي فإنه أربعة آلاف في السنة، فأدفعه لك، فقال له عقيل، بيت المال بيدك وأنت تستوفني بعطائك فغادره وذهب إلى معاوية فأكرمه وقضى عنه دينه وزاده[1].

وقد صالح معاوية الحسن بن علي، وحمله على التنازل مقابل ما طلب من المال والعطاء له ولأهل بيته.. وقد ضاعف معاوية عطاء الحسن والحسين"٢٠٠ مرة" وإذا كان عطاؤهما من بيت المال خمسة آلاف درهم سنوياً فجعله معاوية مليون درهم، ورفع عطاء عبدالله بن عباس إلى هذا المستوى.. ولم يكن معاوية يكتفي بالعطاء بل كان يغض الطرف عما يأخذه خصومه بنو هاشم من بيت المال، بل كان يسكت حتى عما كانوا يستولون عليه بطريقة أو بأخرى.. من ذلك أن إبلاً كانت تحمل مالاً من اليمن إلى معاوية فاعترضها الحسين بن علي، فأخذ ما كانت تحمله، وكتب بذلك إلى معاوية قائلاً :" أما بعد فإن عيراً مرت بنا من اليمن تحمل مالاً وحللاً وعنبراً وطيباً إليك لتودعها خزائن دمشق.. وإني احتجت إليها فأخذتها والسلام ؟.. فأجابه معاوية برسالة يؤنبه فيها على

---

(١) محمد بن علي طباطبا : المعروف بابن الطقطقي الفخري " في الآداب السلطانية والدولة الإسلامية، القاهرة، دار المعارف، ١٩٤٥، ص٧٦ : نقلاً عن :الجابري : مرجع سابق، ص٢٥٤.

لجوئه إلى مثل هذا التصرف [1]. ويقال إن عبيد الله بن عباس تدخل لدى معاوية لصالح الحسين بن علي، الذي كان قد أصابته ضائقة نتيجة حبس معاوية صلاته عنه، فما كان من معاوية إلا أن قال لخازنه : " احمل إلى الحسين نصف ما نملك من فضة وذهب ودابة، وأخبره أني شاطرته مالي.. [2].

خلاصة القول : إن معاوية جعل فلسفته التي ابتدعها تقوم على محددات ثلاثة هي المجالدة والمواكلة والمشاربة الحسنة، والشرعية القرشية، والتي انتهجها بنو أمية من بعده.. ثم اتخذها بنو العباس.. وأصبحت هذه السياسة إطاراً سياسياً للهاشميين في اليمن إلا أنهم استبدلوا بالشرعية القرشية (الشرعية الهاشمية). وعندما قامت الثورة اليمنية استبدلت الشرعية الهاشمية بالشرعية القبلية..(وتلك الأيام نداولها بين الناس) صدق الله العظيم.

---

(١) ابن أبي الحديد : شرح منهج البلاغة، جـ ٤،ص٣٢٧.

(٢) نفس المرجع :جـ ٢،ص٢٨٣.

الخاتمة

مما سبق في بحثنا نلاحظ أن العلاقات التاريخية السياسية بين اليمانيين وقبائل شبه الجزيرة العربية ارتبطت بقالب وحدوي لأول مرة في تاريخ الجزيرة العربية، وبفعل العقيدة الجديدة انصهرت الأحساب والعصبيات وعقدت (الأنا) الاستعلائية بين قبائل الأوس والخزرج في يثرب، وهم من أصل يمني. واستقبالهم لمهاجري قريش، والعطاء السخي الذي بذله الأنصار –الأوس والخزرج- للمهاجرين، هذه الظاهرة التاريخية كان لها عظيم الأثر في التاريخ الإسلامي.

وكان الانسياح القائم على أسس تربوية إسلامية جديدة في ربوع الأقاليم العربية أوجدت مؤشرين، الأول قوة الدعوة الإسلامية.. والمؤشر الثاني الرغبة في الانتقال والاستقرار مع الاحتياج للغنيمة التي فرضت للفاتحين.. إلى جانب الدور الجديد الذي قام به هؤلاء الفاتحون في أسلمة سكان تلك المناطق عن قناعة وإيمان. وكان الصراع الذي فرضته ضرورة الاستقرار المطلوب القائم على شيئين اثنين التنافس الماضوي بين بني أمية وبني هاشم، والشيء الثاني المصالح القبلية التي ألهبتها سياط الأثرة المادية في عهد الخليفة عثمان بن عفان في ذويه، وفتنة الصراع التي أدت إلى مقتل الخليفة عثمان.. والذي قتل مظلوماً في نظر بني أمية وظالماً في نظر الجبهة المعارضة للخليفة، وسكوت الخليفة علي بن أبي طالب.. وكان لسكوته رد فعل لدى أهل البيت ومن هؤلاء "أم المؤمنين عائشة" والزبير وطلحة.. ومن والاهم من العناصر الأموية الأخرى التي جعلت من قميص عثمان شماعة للانسلاخ عن سلطة الخليفة علي بن أبي طالب.

ونجحت المماحكات السياسية لصالح معاوية بن أبي سفيان وسقط الخليفة علي الثائر على الظلم وأهله، والمتقشف بقوة وشدة على نفسه وأهله وأنصاره... وتآمر عليه المتآمرون الذين تأثرت مصالحهم الدنيوية وعصبيتهم العقائدية المبتدعة.. وانتصر معاوية وأسقط سلطة الحسن بن علي بتنازل ارتضاه لنفسه عندما خاب ظنه بأتباعه وأنصاره، وتولى الخلافة معاوية، وأعلن سلطة الملك وابتدع سلطة الإرث السلطوي وانتصرت له القبائل اليمانية سواء التي كانت تقف في وجهه أو القبائل المناصرة له سابقاً واستطاع معاوية بحكم ما نزع إليه من مظاهر الترف والسخاء في العطاء فقد تجمع حوله كل الزعماء من القبائل القحطانية والعدنانية القرشية وغيرها ... وأرسى معاوية سياسة حكيمة تمثلت (بالمجالدة، والمؤاكلة الحسنة، والمشاربة الجميلة)، حيث قال في خطابه السياسي –خطاب العرش- الذي ألقاه أمام الملأ من زعماء قريش في المدينة المنورة وأيد خطابه بالقول : (أما بعد فإني والله ما وليتها بمحبة علمناها منكم، ولا سرة بولايتي، ولكني جالدتكم بسيفي هذا مجالدة، ولقد رضت لكم نفسي على عمل ابن قحافة وأردتها على عمر فنفرت من ذلك نفاراً شديداً وأردتها مثل ثنيات عثمان فأبت علي، فسلكت بها طريقاً لكم فيه منفعة (مواكلة حسنة ومشاربة جميلة، فإن لم تجدوني خيركم فإني خير لكم ولاية) هذا الخطاب السياسي يوضح بعمق دقيق مقدار الدهاء السياسي الذي كان يتمنطق به معاوية شيخ دهاة بني أمية، ومؤسس دولتها. لقد اتخذ مبدأ قولوا ما شئتم ولن أتدخل إلا حينما أرى كلامكم يتحول إلى عمل. وكان يستقبل خصومه السياسيين العلويين أحسن استقبال ويودعهم بالكثير من العطاء.. لذلك

كان من قوله في وصف سياسته إني لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني ولو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت أبداً فقيل له : وكيف ذلك؟ قال كنت إذا مدوها أرخيتها وإذا أرخوها مددتها.. تلك كانت شعرة معاوية المشهورة. لقد تربى بنو أمية على هذا الأسلوب من الدهاء والسياسة الذكية. ومما يميز بني أمية عن اتباعهم من عباسيين وعلويين أنهم لم يتلقبوا بألقاب العظمة كالمعز لدين الله، والمتوكل على الله، والمعتصم بالله ...الخ من تلك الألقاب التي كانت تسبغ على أصحابها هالة من الخصوصية المقدسة. لقد كان بنو أمية رجال دولة وملك ... ولذلك تعتبر الدولة العربية الأولى التي لم يقترب منها رجال فارس والأعاجم من الأتراك والذين كانوا سبباً في زوال ملك بني العباس.

لقد كانت النظرية السياسية التي أسسها الخليفة الأول لدولة بني أمية "معاوية ابن أبي سفيان" وهي الأساس البنائي للدولة الإسلامية من قبل ومن بعد.

نخلص إلى القول أن نظرية "المجالدة والمواكلة والمشاربة الحسنة" كان لها وقع كبير في الأوساط السياسية للدولة الإسلامية العباسية والعلوية والدول العربية المتعددة فيما بعد، ومنها اليمن ...فقد كانت السياسية الهاشمية المتبعة في اليمن قائمة على الشرعية الهاشمية بديلاً عن الشرعية القرشية، وعندما أعلنت الثورة اليمنية استبدلت الشرعية الهاشمية بالشرعية القبلية، وأصبحت واقعاً لا نقاش فيه.. واتخذت الدولة بدون وعي سياسي منها سياسية المجالدة والمواكلة والمشاربة الحسنة ...

وهكذا نلاحظ أن معاوية سبق فلاسفة الفكر السياسي المعاصر بفن التعامل السياسي بين الحاكم والرعية.

جدلية الاتفاق والاختلاف بين الحاكم والرعية تعود إلى الأخذ بتلك المفاهيم أو الخروج عنها ... وما تلك الانقلابات التي نقوم بها بين حين وآخر في دول العالم الثالث إلا خروجاً عن تلك المفاهيم ... أو عدمية مفهوم الحاكم لفن الإدارة السياسية بينه وبين رعاياه.

والله ولي التوفيق،،،

الفهرس